د. محمد مفتاح

# مجهول البيان



إصدارات

دار توبقال للنشر

توزع في

البلاد العربية

وأوروبا

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي. ساحة محطة القطار
بلفدير. الدار البيضاء 05 ـ المغرب
الهاتف : 24.06.05/42

مجهول البيان

# د. محمد مفتاح

# مجهول البيان

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي. ساحة محطة القطار
بلفدير. الدار البيضاء 05 ـ المغرب
الهاتف : 24.06.05/42

تمَّ نَشْرُ هَذا الكتَاب ضِمْن سِلسِلة
المعرِفة الأَدبية

الطبعة الأُولى 1990


رقم الإيداع القانوني 95 / 1990

## إشـــــارة

﴿وتِلْكَ الأمثَالُ نضْرِبُها للنَّاس لَعلَّهُم يتَفكَّرُون﴾ قرآن كريم

## ....وعبـــــارة

## إلَى الأجْـيَـــال الصَّــاعِــدَة

## اعتــراف وشكـــر

ابتـدأتُ هـذا البحث في صيغتـه الأولى بعنـوان : «دور المماثلـة في الفكر الإسـلامي» وحررت تقريرا مختصرا ضمنته الملف الذي قدمته لـ «الجمعية المغربيـة ـ الأميريكيـة للتربيـة والتبادل الثقافي». وقد حصلت على المنحة فَقَضَيْتُ مدة في جامعة « Princeton » بـالولايـات المتحدة الأميريكية مما أتاح لي تعميق الاطلاع على الأبحاث الأنجلوسـاكسونيـة المنجزة في المسألة التي أهتم بإلقاء بعض الأضواء عليها الآن.

بهذه المنـاسبـة، فـإني أشكر كل الـذين أسهموا في إتـاحـة هـذه الفرصـة لي من مزكين مثل : الأسـتاذ أبي طالب محمد، والأستاذ حلا، والأسـتاذ بن حلام ومن أصحاب القرار الذين لا أعرف أسماءهم، كما أشكر الأسـاتـذة A. Udovitch و A. Hamori، و L. Rozen وكل من يشتغل معهم على المساعدات التي وجدتها عندهم.

إلى كل هؤلاء وإلى كل الزملاء الـذين نظروا بعين التشجيع إلى هـذا العمل المتـواضـع أحر تشكراتي...

# تقديم

ليست المسألة البيانية التي نريد الإسهام في حلها جديدة كل الجدة، وإنما شغلت الباحثين في غير المجال العربي فكتبوا فيها من المؤلفات والدراسات ما أحصي بالآلاف. وقد زاد هذا الإنشغال بها في السنوات الأخيرة فأصدرت كتب وخصصت ملفات وعقدت ندوات. وتحاول الدراسات المعاصرة أن تلم بكل مكوناتها وبكل أبعادها. وبكل نظرياتها، فمكوناتها هي الاستعارة والكناية والمجاز المرسل، وأبعادها هي علائق الاستعارة بالنظرية اللسانية وبالنظرية التداولية وبعلم النفس وبالمجتمع وبالعلم وبالتربية،[1] أو بالنظام اللغوي وبالاستعمال اللغوي وبالعمليات النفسانية اللغوية،[2] ونظرياتها هي التشبيهية والإبدالية والتفاعلية والتناقضية والتركيبية[3] وشبه التضادية.

وقد احتلت المسألة البيانية أيضا في مجال الثقافة العربية مركزا مرموقا، وان كانت أدمجت ضمن إشكال أعم وهو البلاغة، فألفت فيها الكتب وشرحت وحشيت.. كما نظمت فيها الأراجيز. وأنجز فيها المعاصرون أطروحات وأصدروا ملفات وترجموا كتبا ومقالات؛ على أن النشاط المعاصر حول المسألة وحلها لم يصل بعد إلى المستوى العالمي، فأكثره يدور في فلك التناول القديم، وتبعا لذلك فهو منغمس في المسائل القديمة وفي مقترحات حلولها. فالبلاغيون القدماء كتبوا ما كتبوا لإنجاز مهام معينة طرحتها عليهم أوضاع دينية واجتماعية وقد وفقوا في ذلك كل التوفيق فشاعت أعمالهم ونقلها خلف عن سلف إلى يومنا هذا.

1) نشير هنا إلى الكتاب الذي أشرف على طبعه الأستاذ : «أرتوني».
2) نلمح هنا إلى الكتاب الذي أشرف على إخراجه الأستاذان : «وولف پاپروطي وروني ديرڤن». وهناك تداخل بين المواضيع التي يطرقها الكتابان معا.
3) سيجد القارئ إشارات إلى هذه النظريات أثناء الدراسة.

كثير منا يستظهر عن ظهر قلب آراء الأقدمين في الفن فيوصف بأنه «من حفظة البلاغة العربية الكريمة»، ولكن هذا الكثير منا حين يتجاوز الأمثلة المذكورة المكرورة وما ماثلها إلى فهم وتأويل الأمثال القرآنية الكريمة والأمثال الحديثية الشريفة والنص الشعري المتقن واللوحة التشكيلية والفلم والأقصوصة العجيبة الغريبة والكرامة الصوفية... يقفُ يضرب أخماساً في أسداس لم تنفعه أقسام الاستعارة ولا أصناف الكناية والمجاز المرسل، ولم تفده أوصاف «الحافظة العلامة الفهامة». ومع هذا العجز المخزي فإننا ما زلنا نثني أعطافنا عجبا وكبرياء ونقنع بالرواية والحفظ و«التعبد» ونفر من الدراية والتعليل مفضلين راحة القلب والجسد على عذاب الفكر والاجتهاد.

كثير من حذاقنا الحفاظ للسكاكي والقزويني وسعد الدين التفتازاني ولغيرهم يدعي أن الحقيقة العلمية المطلقة ألقت رحلها عند هؤلاءمتمحّلا - حسما للنقاش وإفحاما للخصم - المطابقة بين النصوص الدينية المقدسة منا جميعا وبين آراء أولئك العلماء الأفذاذ التاريخية النسبية، وجاهلا عما يعمل المومنون والكافرون من أدبيات النظريات كالاختزال والتتميم والاستبدال والتنافس، والشمولية والبساطة والمقايسة والتكييف...

إننا لا ننكر أن علماءنا القدماء جاءوا بآراء حصيفة وصائبة في المسألة التي تحت قيد التحليل، ولذلك بوأناهم المكانة اللائقة بهم في هذه الدراسة، ولكنهم بحكم سيطرة المناخ المعرفي الموروث عن أرسطو شطروا آلية التقييس إلى شطرين : أحدهما تخلوا عنه وثانيهما تبنوه: فما تخلوا عنه هو التقييس (القياس) الذي تركوه للأصوليين والمناطقة والفلاسفة، وما تبنوه هو الاستعارة. خاض الأصوليون والمناطقة والفلاسفة في دور القياس في عملية المعرفة وفي قيمتها، وترك البلاغيون شذرات في الدور المعرفي للاستعارة سرعان ما تناساها الخلف واكتفوا بجماليتها ثم نسوا كل دور لها فصارت عبارة عن محفوظات ببغاوية تتردد بين الشفاه. وقد أن الأوان لاستثمار ألية التقييس لإدراك دور الاستعارة في خلق النظرية وفي تسويغها وفي الربط بين عناصر الكون للهيمنة عليه وضمان العيش فيه، أو في خلق الأوهام وقلب الحقائق، وفي نشر معرفة مزيفة.

محاولتنا هذه تسير في ضوء هذا الاتجاه الموحد الجديد وإن هدفت بصفة أساسية إلى الإسهام في حل مسألة استعارة السياق بتعبير «وينريخ» أو النص (بتعبيرنا). أي مجموع الاستعارات الواردة في النص المكونة لخطاب ما، إرجاعا للدور المعرفي والجمالي للنص، إذ صار يعتبر وخصوصا الأدبي منه مجرد هذر لأناس يعيشون في أوهام أو مجرد خزان لمعلومات تستغل في أغراض مختلفة. وقد تبنينا نظرية ملائمة جعلتنا نتجاوز العوائق

الإبستمولوجية التي تحول دون الوصول إلى هدفنا. وكانت النظرية هي التفاعلية لشموليتها وبساطتها، فهي شاملة من حيث إنها تجعلنا نستطيع تجاوز الإبستمولوجية الأرسطية الوضعية التي اهتمت بتحليل الكائنات الطبيعية والمفاهيم اعتماداً على مقوماتها الملاصقة، وتجعلنا ـ بدلا من ذلك ـ نتبنى التحليل بالمقومات السياقية المستقاة من تفاعل المفاهيم ومساق الخطاب وسياقه ضمن بنية شاملة. وأما بساطتها فمن حيث إن كل استعارة يمكن ردها ـ بناء على المساق والسياق ـ إلى موضوع أول وإلى موضوع ثانٍ ممَّا جعلنا نستغني عن التقسيمات الكثيرة التي استنكرها القدماء أنفسهم؛ على أن الوصول إلى بناء الاستعارة النصية تطلب منا المرور باستعارة الجملة لإدراك معنى المماثلة التي تقوم بدور أساسي في النظرية المعرفية للاستعارة، وتبيان معنى الاستعارة المفهومية التي تتمحور حولها استعارات تعبيرية.

إذا كانت النظرية التفاعلية أدت بنا، مما بعد تحليل المفاهيم، ومما بعد الاستعارة المفهومية والتعابير الاستعارية، إلى التحليل ضمن بنية كلية، فإن الأمر لم يكن سهلاً ميسراً للربط بين استعارات النص. ولذلك قمنا بعملية تطويع للمقاربة المعرفية لإثبات الترابط. وبمجرد ما تحقق مبتغانا اعترضنا عائق آخر وهو تأويل استعارة النص (وينريخ) أو السياق (بتعبيرنا) أي تلك القاعدة الإديولوجية لمجتمع من المجتمعات المدلول عليها بالاستعارة النصية، وربما تجاوزناه بنجاح ملحوظ وَقَدْ سَاعَدَتْنَا عليه المقاربات التأويلية التي استخلصنا منها مقاييس نصنع بها التأويل ونسوغه.

على هذا الأساس قسمنا الدراسة :

**إلى فصل أول :** تعرضنا فيه للتعريف الأرسطي والشجرة الفورفورية، وأبَنَّا فيه تأثيرهما في الباحثين وتوظيفهما من قِبَلِهِمْ قديما وحديثا، كما أشرنا إلى من انتقدهما ورفضهما ودعا إلى تجاوزهما.

**وإلى فصل ثان :** قدمنا فيه تباشير الثورة ضد أتباع أرسطو القدماء والجدد، والدعوة إلى مقاربات جديدة تعيد إلى عملية التقييس ومكونها الأساسي المماثلة دورهما في عملية بناء المعرفة أو الوهم.

**وإلى فصل ثالث :** أبَنَّا فيه الثورة الجذرية المقامة ضد الإبستمولوجية الأرسطية. وقد دعت هذه الثورة نفسها بالعلم المعرفي الذي قدم مفاهيم لتحليل الظواهر على ضوئها ضمن بنية شاملة.

**وإلى فصل رابع :** اجتهدنا فيه لاستعراض مختلف الآراء التأويلية حتى يمكن تأليف منها مقاييس تمنح للنص معنى ودلالة.

**وإلى فصل خامس :** ربطنا فيه الأقوال بالأفعال.

على أننا لم نجعل لها خاتمة لاعتبارنا أن هذه المقترحات المقدمة ليست إلا خطاطة أولية ينقصها التحليل الإبستمولوجي والتأريخي الدقيقان للمؤلفات البلاغية العربية القديمة حتى يضبط وقت بروز المفاهيم والإشكالات والحلول، كما أن هذا التحليل يجب أن يشمل النظريات الأجنبية أيضا، وتعوزها الاختبارات الدقيقة، على أساس نصوص منسجمة ليمكن تعديلها أو إغناؤها، وهذا ما سنقوم به في الجزء الثاني.

وبعد، فإننا نرجو أن تصير هذه المحاولة لبنة في صرح البحث العلمي الذي يشيده الخطاب الفلسفي والخطاب اللساني والخطاب التاريخي والخطاب التأويلي والنقدي لصياغة فكر أصيل متحرر متفتح ينقذ ناشئتنا من ثقافة الذاكرة ومستملحات السمر والمسكوكات المحنطة.

**محمد مفتاح**

# الفصـــــل الأول

## 1. التعـريـــف

### الإشكـــال

لقد بقيت البلاغة العربية في الدراسات القديمة والحديثة مفصولة عن النظام الفكري الذي نشأت فيه وترعرعت، فهي وثيقة الصلة بالمنطق، والأصول والنحو، وعلم الكلام. وعدم مراعاة التفاعل بين هذه الفروع المعرفية عاق المصلحين أن يكتشفوا الآليات العميقة التي تحكم النشاط الاستدلالي اللغوي القائمة عليه تلك الفروع. بيد أن المهتم يجد أعمالا مهمة أنجزت لإثبات الصلة بين النحو وبين المنطق وبين النحو وأصول الفقه. ولكنه لا يعثر على مثيل لها أنجز لتبيان العلائق بين التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل وبين قياس التمثيل الأصولي وتطورات المنطق الصوري عبر العصور الوسيطة.

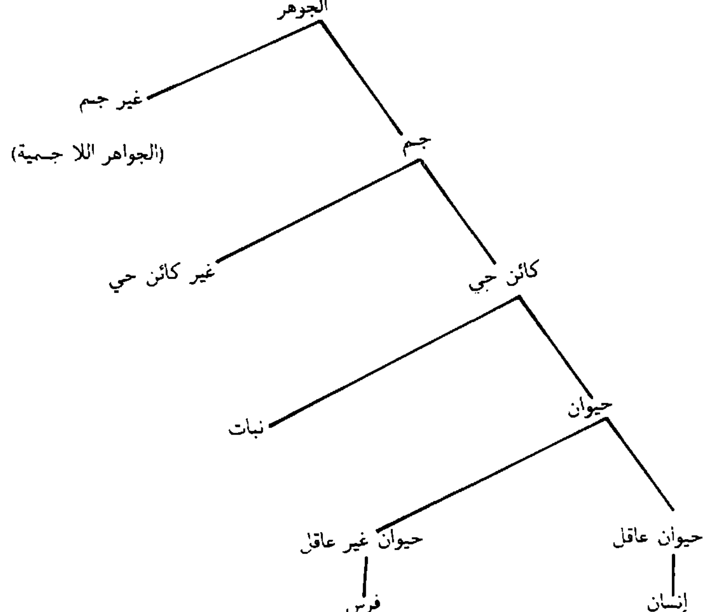
سيرا على سنن السلف الذي حاول أن يصلح البلاغة العربية، ومنها البيان، فإننا لا نرى حرجا في أن نعيد النظر في التراث البياني العربي. وأن نبنيه في إطار عمل بسيط وواضح ومتماسك وشامل لدراسة البيان في الجملة وفي النص، مع إبراز العلائق الوثيقة، بين البلاغة والمنطق الصوري، المتجلية في التحديد / الكناية والمجاز المرسل والاستعارة / قياس التمثيل، ومع الإلحاح على الدور المعرفي لكل العمليات المذكورة، وعلى الخلفيات الفلسفية والوجودية التي وراءها.

من المؤكد على كل من حاول أن يدرس البيان العربي (وغير العربي) بكيفية جدية التعرض لما يدعوه المناطقة بالتحديدات والتعريفات إذا كان حريصا على أن يضع لعمله أسسا مكينة وراسخة، وخصوصا في أصولها اليونانية حتى يتبين له صنيع المناطقة والبلاغيين والأصوليين العرب والمسلمين. وحرصا منا على تحقيق هذا الطموح فإننا سنخص ببعض الإشارات التحديدات والتعريفات لدى القدماء من اليونانيين والمسلمين

### 1.1. التحديد لدى قدماء اليونان

على هذا، فإنه لا مفر للباحث في التحديدات والتعريفات أن يرجع إلى واضع أسسها، وهو أرسطو، فقد قال في التحديد : إنه : «هو جوهر الطبيعة أو الطبيعة الجوهرية»،[1] ومعنى هذا أن التحديد هو الوسيلة الأساسية لإدراك جواهر الأشياء مهما كانت، واعتبارا لهذا الدور الإدراكي والمعرفي، فإن أرسطو ضبط مكونات التحديد ومنهاجيته. ولذلك، فإنه صاغ نظريته في الألفاظ (الكليات) التي ذكر أربعا منها، وهي **الجنس والخاصة والتحديد والعرض.**

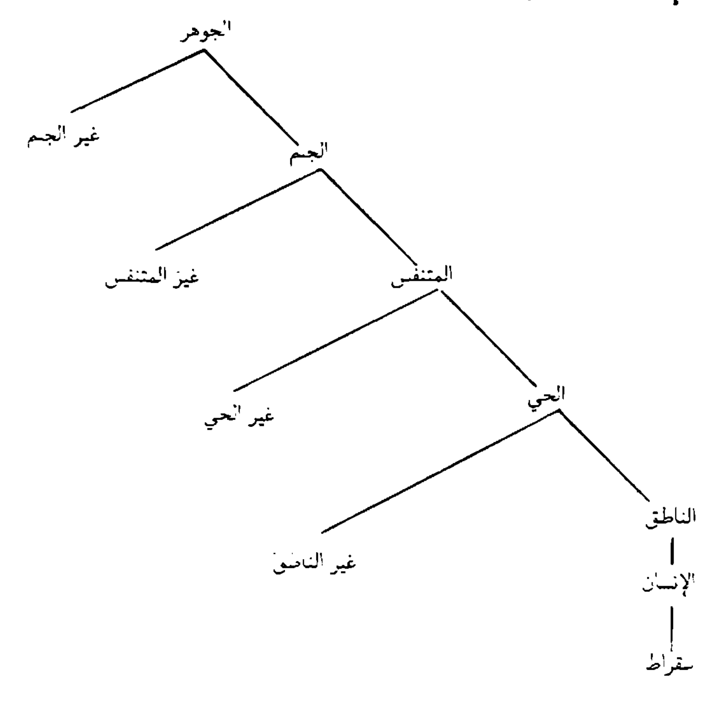
على أن أهم من أوضح أقوال أرسطو في الألفاظ وكان له تأثير كبير في مناطقة العصور القديمة من اليونان والإسلاميين هو فورفوريوس[2] وشجرته التي صارت موضع تنقيح وتهذيب فيما بعد. فقد صنف الكليات إلى خمس وهي **الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض**، وهذه الكليات يرتبط بعضها ببعض ويحدد بعضها بعضا. وللإيضاح نورد «هذه» الشجرة :




1) Ibrahim MADKOUR (1969). L'Organon D'Aristote dans le Monde Arabe Vrin. Paris.
Umberto ECO. (1985). Semiotics and the philosophy of Language. Mac Millan. P. 57.

2) Ibrahim MADKOUR. op. cit. P. 70 – 75
Jean BOUFFARTIQUE. (1977). Porphyre (de l'Abstinence). Raspail. Paris.
**إيساغوجي**، لفورفوريوس الصوري (1952) نقل أبي عثمان الدمشقي تحقيق. د. أحمد فؤاد الأهواني. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

على أننا نجد شجرة أخرى تخالفها في بعض المكونات. وهذه الشجرة مستخلصة من الترجمة العربية لكتاب «إيساغوجي» (المدخل). يقول فورفوريوس فيه : «إن الجوهر هو أيضا جنس، وتحته الجسم، وتحت الجسم الجسم المتنفس الحي، وتحت الحي الحي الناطق، وتحت هذا الإنسان، وتحت الإنسان سقراط».




«فالجوهر من هذه الأشياء هو جنس الأجناس، والإنسان هو نوع الأنواع، فأما الجسم فنوع للجوهر وجنس المتنفس، والمتنفس نوع للجسم، وجنس للحي، والحي أيضا نوع للمتنفس، وجنس للناطق، والناطق نوع للحي وجنس للإنسان، والإنسان نوع للناطق، وليس هو جنسا للجزئيين من الناس لكنه نوع فقط».[3] هكذا يوضح فورفوريوس بدون لبس أن جذر الشجرة هو الجنس العام أو جنس الأجناس الذي لا يمكن أن يكون نوعا لشيء آخر، ويتبعه نوع يصبح بدوره جنسا لأنواع أخرى، وهكذا إلى أن يوصل إلى نوع الأنواع الذي هو الإنسان فإنه لن يكون جنسا.

3) **إيساغوجي**، ص 72 ـ 73، وقد تصرفنا في النص بعض التصرف.

وقد وقع التركيز في أقوال فورفوريوس التي نقلناها على الجنس والنوع، ولكن كل نوع يصح أن يكون فصلا، فالمتنفس فصل للجم، والحي فصل للمتنفس، والناطق فصل الحي.

وقد ينضاف إلى النوع والفصل، الخاصة لتحديد الشيء، رغم أن وضع الخاصة غامض. ومع ذلك، فان الباحث مطالب بتحديد ما تبقى من الكليات الخمس، وهو العرض. ولكن الأمر ليس سهلا، فهو يتداخل مع الفصل. وهذا ما عبر عنه «إمبرتو إيكو» بقوله : «فالفصول إمتازت بهذا الوضع الخاص لأنها أعراض، والأعراض غير منتهية في العدد أو على الأقل غير محددة»،[4] ومن حيث إنها أعراض، فإنها يعبر عنها بالأوصاف.

يتبين مما تقدم أن هناك خلافا بين الرجلين (أرسطو وفورفوريوس) وهذا شيء طبيعي، إذا علمنا أن فورفوريوس هو من شراح أرسطو ومناقشيه : أرسطو لم يذكر النوع وقد استدركه فورفوريس، كما أن الرواقيين سيضيفون كلية سادسة وهي : الشخص، وأما المناطقة المسلمون فسيكون لهم كلام كثير مع تحديدات وتعريفات أرسطو وفورفوريوس.

### 2.1. التحديد لدى المناطقة المسلمين

لعل أهم الشراح لمنطق أرسطو و«فورفوريوس» من أجيال المناطقة المسلمين في العهود الأولى هو إبن سينا كما تبين ذلك مختلف كتبه المنطقية والفلسفية، فقد اعترف بصعوبة التحديد، وانتقد الشجرة الفورفورية التي لا تقدم تصنيفا دقيقا. ومع هذا النقد الذي قدمه إبن سينا فإن مدخل فورفوريوس مارس تأثيرا كبيرا في المنطق العربي الإسلامي، فقد اتبعه المناطقة في تقسيم الكليات إلى خمس وتقسيم الأعراض إلى مفارقة، وتشعيب الشجرة على أساس هذا التقسيم.[5]

من المستحيل أن يتتبع المرء كل ما كتب في المنطق من قبل المسلمين بعد ابن سينا، ولذلك، فإنه لا مفر له من اختيار بعض النماذج لإيضاح موقف المناطقة المسلمين من التراث اليوناني في هذا المجال.

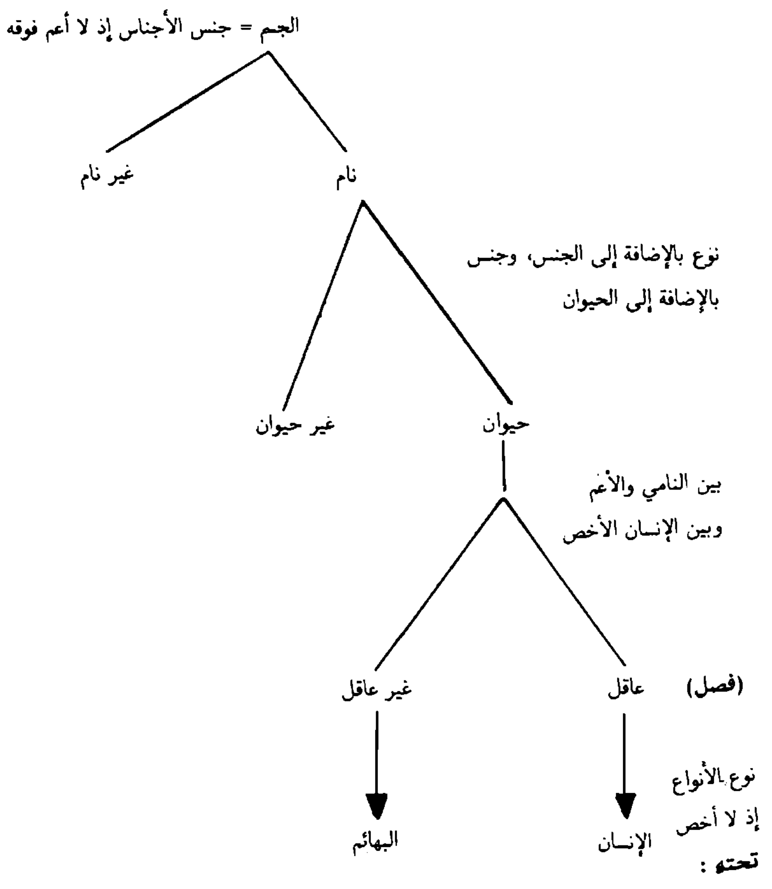
لعل أبا حامد الغزالي من بين الشخصيات الإسلامية التي ساهمت بالتأليف في المنطق بحظ وافر، على أننا سنقصر اهتمامنا بأرائه على ما يتعلق بالحد. ولربما تكون أحسن وسيلة هي أن نقدم أقواله. جاء في محك النظر «الجسم ينقسم إلى نام وغير نام، والنامي ينقسم إلى حيوان وغير حيوان، والحيوان ينقسم إلى عاقل، وهو الإنسان، وإلى غير عاقل كالبهائم، فالجسم

(4) Umberto ECO, op. cit. P. 67.

(5) د. عادل فاخوري (1980). **منطق العرب**. من وجهة نظر المنطق الحديث. دار الطليعة بيروت.

جنس الأجناس إذ لا أعم فوقه، والإنسان نوع الأنواع إذ لا أخص تحته، والنامي نوع بالإضافة إلى الجنس لأنه أخص منه، وجنس بالإضافة إلى الحيوان لأنه أعم منه، وكذا الحيوان بين النامي الأعم وبين الإنسان الأخص».[6]

يدرك القارئ بكل سهولة أن نص الغزالي ليس الا مجرد صياغة لما ورد في «إيساغوجي» مجملا، وأثبته ابن سينا مفصلا، ولذلك يمكن ترجمته إلى شجرة فورفورية :




6) أبو حامد الغزالي، (1966)، كتاب **محك النظر في المنطق**، دار النهضة الحديثة، بيروت، لبنان، و(1978) **معيار العلم في فن المنطق**، دار الأندلس، بيروت.

هذه الشجرة الفورفورية تسمى حدا حقيقيا لأنها حللت «الجسم» إلى الصفات الذاتية المقومة التي هي الأجناس والأنواع والفصول. وإذا تأملنا يمكن أن نقسم هذه الشجرة إلى صِنْفَيْنِ : جنس بدون النظر إلى أنواعه، وفصل. ولذلك كثيرا ما نجد في كتب المنطق تعبيرا مثل : إن الحد الحقيقي يتم بالجنس (القريب) والفصول.

لقد صارت هذه الطريقة معيارا لتحديد الكلمات، وهي أن يؤخذ الجنس الأعلى الذي لا شيء فوقه أو الذي لا ينقسم، ثم ينظر إلى أية مقولة ينتمي، ثم يحلل إلى مقوماته الذاتية الممكنة و«ان كانت ألفا على شرط أن يقدم الأعم على الأخص»،[7] ثم يبحث فيما يمكن أن يتكرر منها فيحذف ويقتصر من جملتها على الأخير القريب ثم يضاف إليه الفصل.[8] هكذا تحدد الماهية، فإذا تساوي المحدود بالحاد فهو إذن حد تام.[9]

إن هذا الحد الحقيقي الدال على تمام ماهية الشيء شيء عسير جدا،[10] لأنه لا يمكن الوقوف على جميع ذاتيات الشيء مهما بذلت القوة البشرية من جهد. وعلى أساس هذه الصعوبة التي اعترف بوجودها الرواقيون وابن سينا وأغلب المناطقة القدماء، فإن ما يتيسر هو الحد الناقص، فالحد الناقص هو ما يعرف بمحمولات ذاتية دون اشتراط المساواة بين طرفي التحديد، كما أن ما هو أيسر منه وأكثر انتشارا وتداولا هو الرسم، سواء أكان تاما أو ناقصا، فالتام ما يعين الأشياء بصفاتها الظاهرة المتمثلة في الجنس القريب والخاصة، وأما الناقص فيكون بمحمولات عرضية دون اشتراط المساواة بين طرفي التحديد. وقد اعترف القدماء أنفسهم بأن أغلب ما يوجد من تحديدات هي من نوع الرسم[11] المعتمد على الصفات الذاتية واللازمة لأن إدراك حقيقة المعرف وكنهه شيء لا يتيسر دائما أو غالبا، ولأن هذا الحد الرسمي يفسح المجال لِلّوازم والأعراض المنضافة من قبل سياق الكلام.[12]

من خلال هذا العرض المختصر نرى أنه قد استقر لدى الكاتبين في المنطق المتبعين لأرسطو وفورفوريوس أن الكليات خمس، هي :

7) أبو حامد الغزالي، **محك النظر**، ص 108.
8) أبو حامد الغزالي، **معيار العلم**، ص 200.
9) عادل فاخوري، الكتاب المذكور، ص 48.
10) أبو حامد الغزالي، **محك النظر**، ص 121.
11) أبو حامد الغزالي، الكتاب المذكور، ص 109.
12) أبو حامد الغزالي، الكتاب المذكور، ص 126.

- الجنس، وهو الكلي المقول على كثيرين مختلفين في الحقيقة، في جواب : ما هو ؟
- النوع، وهو الكلي المقول على كثيرين متحدين في الحقيقة في جواب : ما هو ؟
- الفصل، جزء الماهية الصادق عليها في جواب : أي شيء ؟ (الناطق).
- الخاصة، ما يخص الماهية ولا يوجد لغيرها (المشيء).
- العرض العام، الكلي الخارج عن الماهية الصادق عليها وعلى غيرها.

ان كلا من الجنس والنوع والفصل تنتمي إلى المقومات الذاتية، وأما الخاصة والعرض العام، فهي إما لوازم أو أعراض، وقد سمي ما وصف بالمقومات الذاتية الحد، ودعي ما نعت باللوازم والأعراض الرسم، وبتعبير آخر، فإن ما يحمل على الشيء «إما أن يكون مقوما ذاتيا وإما أن يكون غير ذاتي مقوم ولكنه لازم غير مفارق، وإما أن يكون لا ذاتيا ولا لازما ولكن عرضيا».[13]

هذه هي «الخطاطة»[14] العامة التي انغرست في ذاكرة متعلمي المنطق الصوري، والتي صارت عناصرها ثوابت لا يجوز الإخلال بها لأنها أصبحت قوانين علمية صارمة «يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات».[15]

13) أبو حامد الغزالي، معيار العلم، ص 65.

14) حاشية العلامة الشيخ مصطفى البلاقي على ما أملاه الشيخ القويسني على سلم الأخضري، طبعة حجرية، فاس، المغرب.

15) ابن خلدون، المقدمة، دار البيان، ص 489.

## 3.1. رفض التحديد

بيد أن بعض الفقهاء النبهاء لم تفتهم الخلفيات الميتافيزيقية والفلسفية التي تكمن وراء التحديدات اللغوية والقياسات المجردة، لذلك نجد خلافات ومناقشات حول معنى الجوهر، وأنواع الصفات الذاتية والعرضية، ومكونات الشجرة الفورفورية. بل إن بعض الفقهاء طعن في جدوى المنطق، فأفتى بتحريمه. ويمكن أن نتخذ ممثلا لهذا الاتجاه الفقيه الحنبلي ابن تيمية.[16]

سلك هذا الفقيه استراتيجية تتجلى في سوق كلام المناطقة بأسلوب محكم وفهم جيد، ثم اتباع ذلك بتعليقات رافضة لمجمل آرائهم، سواء أكانت لأرسطو أم لفورفوريوس؛ فالمناطقة ذوو الاتجاه الأرسطي يرون أن الحدود تفيد تصور الحقائق، وتتم هذه الحدود بذكر الصفات الذاتية المشتركة والمميزة حتى يركب الحد من الجنس المشترك والفصل المميز،[17] أو من الجنس والنوع والفصل. لكن ابن تيمية لا يوافقهم لأنه يرى أن ما يتبناه المناطقة من تصور ليس مؤديا إلى الحقيقة، سواء أكان الحد حقيقيا أو رسميا أو لفظيا، ثم إن ما يقوم عليه الحد من تفرقة بين الصفات الذاتية والعرضية تفرقة باطلة، إذ لا فرق بين الفصل والخاصة ولا بين الجنس والعرض العام،[18] وإذا ما سلم بأن الذاتيات ما كانت داخل الماهية والعرضية ما كانت خارجة عنها،[19] فإن إدراك الصفات الذاتية صعب، إذ كل صفة قدتحتاج إلى حد مما يلزم عنه التسلسل أو الدور،[20] كما أن تلك الصفات كلها متماثلة «وطلب الفرق بين المتماثلات ممتنع وبين المتقاربات عسير»،[21] وقبل هذا كله، فإن الحدود بما تتطلبه من تحليل وتركيب إنما تكون للحقائق المركبة التي لها جس وفصل، فأما ما لا تركيب فيه وهو ما لا يدخل مع غيره تحت جنس فليس له حد.[22]

16) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. (المجلد التاسع الخاص بالمنطق) مكتبة دار المعارف، الرباط، المغرب.
17) الكتاب المذكور، ص 43.
18) الكتاب المذكور، ص 52.
19) الكتاب المذكور، ص 97.
20) الكتاب المذكور، ص 57.
21) الكتاب المذكور، ص 89.
22) أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب (1967)، **البرهان في وجوه البيان**، تحقيق، د. أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي. يقول : «الأشياء المعقولة التي لا تقع تحت الحس ليست لها مدة تكون أصلا لها ولا تنفصل أيضا من غيرها من المعقولات إنفصالا طبيعيا فيستعمل ذلك في حدها، فإنما تعرف بأسمائها وتوصف بأوصاف غير محيطة بحدودها» ص 82.

ابن تيمية عارف بخلفيات التحديد الميتافيزيقية والفلسفية ومداه وثغراته : فقد كان يستظهر الأدبيات المنطقية عن ظهر قلب، إذ يجده القارئ يذكر الكليات الخمس التي هي : الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض، والأجناس العالية والأجناس السافلة... كما أنه يقر بأن «وجود صفات مشتركة ومختصة حق»،[23] ويعترف بأن التصور قد يحصل ولو بالخاصة، كل هذا يعني أنه لا يرفض التحديدات بكيفية نهائية وحاسمة لأن ابن تيمية أذكى من أن يقول بهذا، ولكنه يرفض تصور الحقائق بها وحدها.

موقف ابن تيمية من الحدود والمشاكل التي تطرحها والمعرفة الناتجة عنها تعميق لما يعثر عليه القارئ لدى الرواقيين وابن سينا والغزالي وغيرهم، لكن الذي يجب الانتباه إليه أن مواقف علماء الكلام والمناطقة والفلاسفة المسلمين تختلف عما سبقها من المواقف. ذلك أن من ناقش من المسلمين مشكلة التحديد استند إلى خلفيات دينية تجريدية وتنزيهية لله عما سواه، أو إلى أسس عملية تشريعية مثلما يجد المهتم لدى الغزالي. فمفكرو الإسلام كانوا يعلمون أن التحديد مبني على أسس نظرية معينة لتوالد الكون وتناسل كائناته كما تعكس ذلك شجرة فورفوريوس ذات النزعة الأفلوطينية الجديدة، يقول امبرتو إيكو : «تقاليد الأفلاطونية الجديدة تسرد قائمة الآلهة من بين الأجسام والحيوان، لأن الآلهة قوات طبيعية وسيطة، ولا يمكن أن تضاهى بالأحد الصمد».[24]

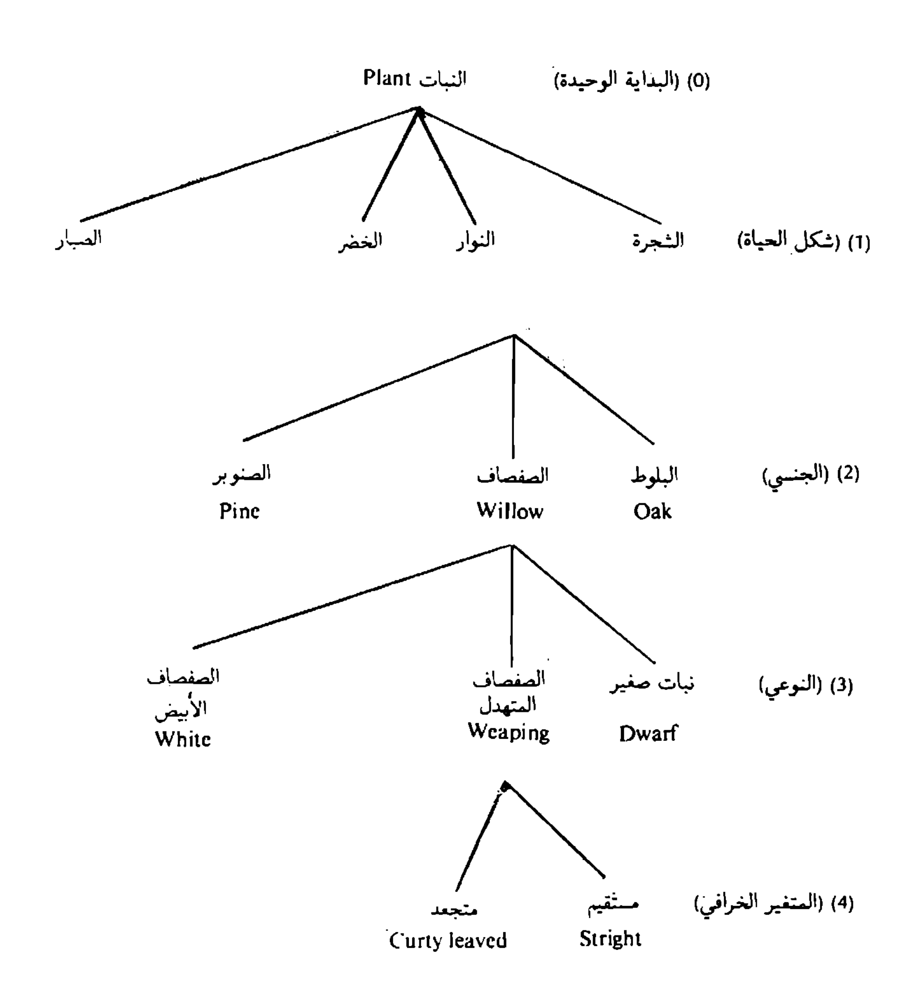
## 1.2. الارسطيون الجدد

بيد أن ما هو جدير بالتسجيل والاعتبار كون التحديدات، باعتماد على الشجرة الفورفورية، رجع إلى سالف مجده في مناهج انتروپولوجية وسيميوطيقية ولسانية. وقد شاع تحت اسم التحليل المتتالي في أمريكا أو التحليل المقومي (السيمي) في أوربا. وإذ أننا لا ننوى التفصيل في هذه الإتجاهات، فاننا نكتفي بإشارات عابرة محيلين على المراجع المختصة.

(23) ابن تيمية، الكتاب المذكور، ص 86، وأنظر أيضا
Ibrahim MADKOUR, PP. 107.

(24) Umberto ECO, op. cit. P. 60.

لعل من أهم الإتجاهات التي تقوم على أساس التحليل بالشجرة الفورفورية ما يدعى بـ «نظرية معنى الكلمة».[25] ولكي يكون كلامنا مبنيا على حجج غير مدحوضة، وليطمئن قلب القارئ نقدم أمثلة من هذا الاتجاه.



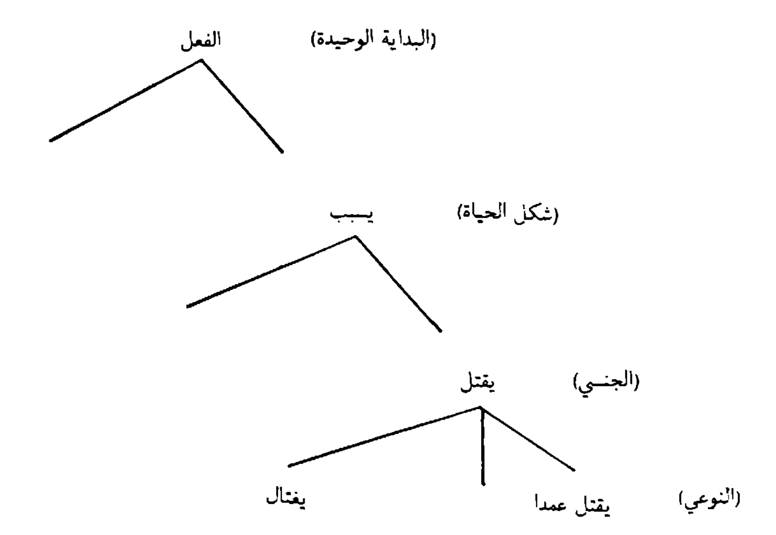

(25) UMBERTO Eco. op. cit. PP. 46 – 84.

François Rastier. (1987). Semantique interprétative. PP. 18 – 36. PUF. Paris.

Floyd Merrell. (1985). A Semiotic Theory of Texts. PP. 31 – 36. Berlin.

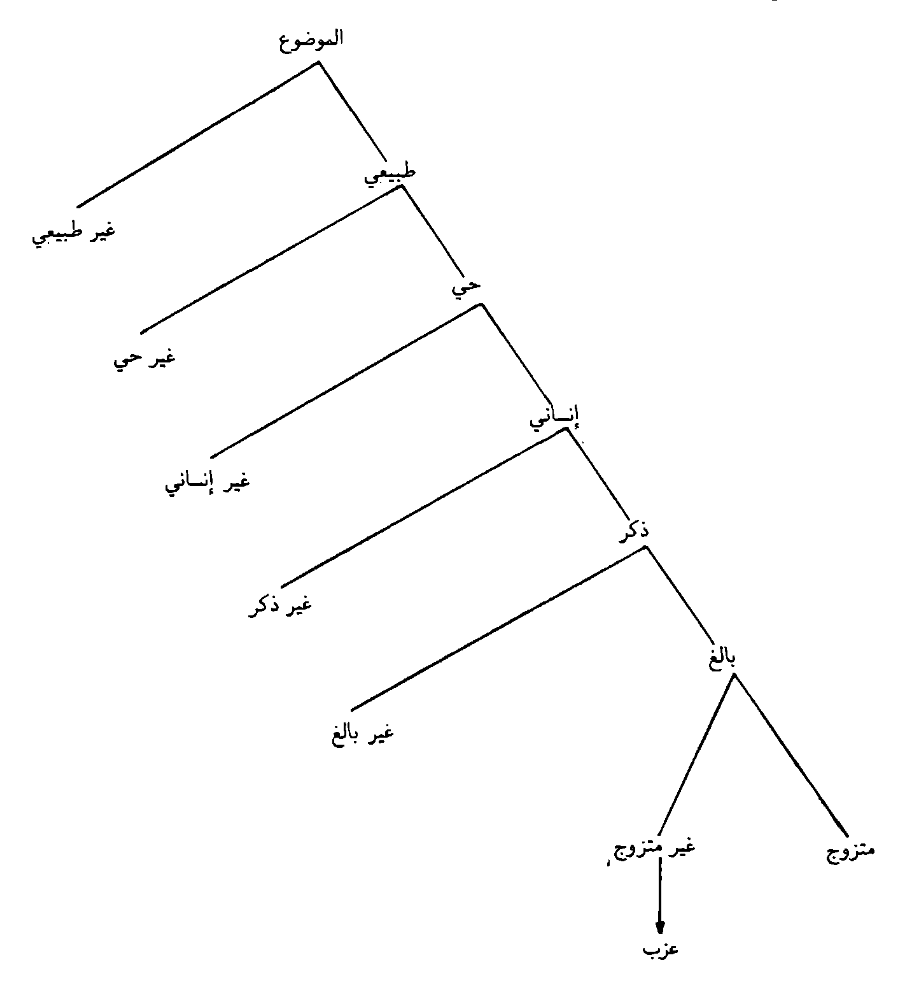
ان هذه الخطاطة تذكرنا بما رأيناه في الشجرة الفورفورية سابقا، وإن أدخل عليها بعض التغيير هنا، فقد ابتدأت بالأعم فالعام فالخاص فالأخص. «فالبداية الوحيدة» : «الجوهر»، و«شكل الحياة» : «النوع» الذي يصير «جنسا» «لنوع»، و«الجنسي» الذي يتحول إلى «جنس» لـ «النوعي»، وقد يكون هذا «النوعي» هو «الفصل»، و«المتغير الخرافي» : «الخاصة». كما أنها تذكرنا بالأساس البيُولُوجي والميتافيزيقي الذي يقوم عليه التحديد الأرسطي.

لم يكتف أصحاب هذا الإتجاه بتحديد الاسم عن طريق التشجير، وإنما تعدوه إلى الفعل أيضا :



قد يكون أشهر من أحيى هـذا التحليل «كـاتز»[26] و«فودور» في أعمـالهمـا. ومن أمثلتهـا المشهورة «عزب»، فعندما تحلل هذه المفردة إلى مقوماتها تعطي ما يلي :

(موضوع طبيعي) (فيـه حيـاة) (إنســاني)ـ(ذكر) (بـالغ) (لم يتزوج قـط). وإذا مـا شجرت تؤدى إلى التالي :




(26 Pulman, S.G. (1983), Theory of Word Meaning. P. 84. Croom Helm LTD. Great Britain.

وقد يكون أهم من نشره في أوربا بكيفية منهاجية دقيقة هو «كَريماص» ومدرسته، فرغم أنه حاول تجاوز التحليل المفردي إلى النص فان التحليل المقومي بقي الأساس المكين الذي بنى عليه نظريته.

تحقيقا لهذا التجاوز فقد اقترح «كَريماص» مفهوما جديدا نقله من ميدان الفيزياء، وهو مفهوم التشاكل.[27] وأشهر تحديداته ما ورد في «المعجم» : «التشاكل ـ هو قبل كل شيء ـ يعين تردد المقومات السياقية التي تضمن للخطاب ـ القول انسجامه على طول سلسلة تراكيبية. وبحسب هذا الاعتبار، فقد يظهر أن المركب الجامع لمقومين جزئيين ـ على الأقل ـ يمكن أن يعتبر بمثابة سياق أدنى يسمح بتأسيس تشاكل».[28] من خلال هذا التحديد نضع يدنا على قمة كبرى؛ أول مكوناتها متعلق بالمقومات السياقية التي تنبث على طول سلسلة القول لتضمن تراكمه وانسجامه، وثانيها مقومات جزئية خاصة بمفردة معينة. وكل من النوعين معا يتأسس على مقومات وضعية معطاة، وعلى مقومات مبنية ناتجة عن السياق، فما ينتج من المقومات الجزئية الوضعية يدعى بالمستوى السيميولوجي الذي ينتج عنه تشاكل بنيوي عميق، وما يترتب عن المقومات السياقية المتكررة يسمى تشاكلا خطابيا.

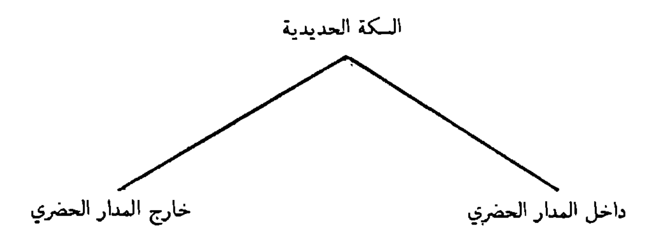
هكذا يتجاوز «كَريماص» العوائق، بناء على تجربته الفاشلة في التحليل المعجمي، ليصوغ مفهوم التشاكل المؤلف بين العمليتين : تحليل المفردة الواحدة، وتحليل الترابطات التي تتعالق معها. ولكن هذا المفهوم تعرض لمناقشات عديدة وتعديلات مختلفة منذ أن اقترحه «كريماص» إلى الآن، فأنجزت حوله دراسات تعد بالعشرات. ولربما كانت أعمال «ف. راستي» أشمل ما أنجز حوله، وخصوصاً ما ورد في كتابه «الدلالة التأويلية».[29]

ان كل ما نريد أن نشير إليه هنا هو ما يتعلق بالقضية المبحوثة فقط، نعني تأثير الشجرة الفورفورية في الدراسات الحديثة. ويتجلى هذا التأثير في نمذجة التشاكل، **فهناك تشاكل جنسي**، وهو أنواع ثلاثة، أحدها صغير يكون موضوعة قابلة لأن تشطر إلى شعبتين :

27) Isotopie.

28) هذا مثال شهير يجده كل مهتم في الفقرة التي تتحدث عن التحليل بالمقومات.

29) See. François Rastier, op. cit. P. 90, PP. 87 - 140.




وثانيها متوسط يكون موضوعة مؤهلة لأن تشعب إلى شعبتين كبيرتين قابلتين لأن تتفرعا إلى فرعين :

(النقل الوسائل الجماعية)

السكة الحديدية

الطرق

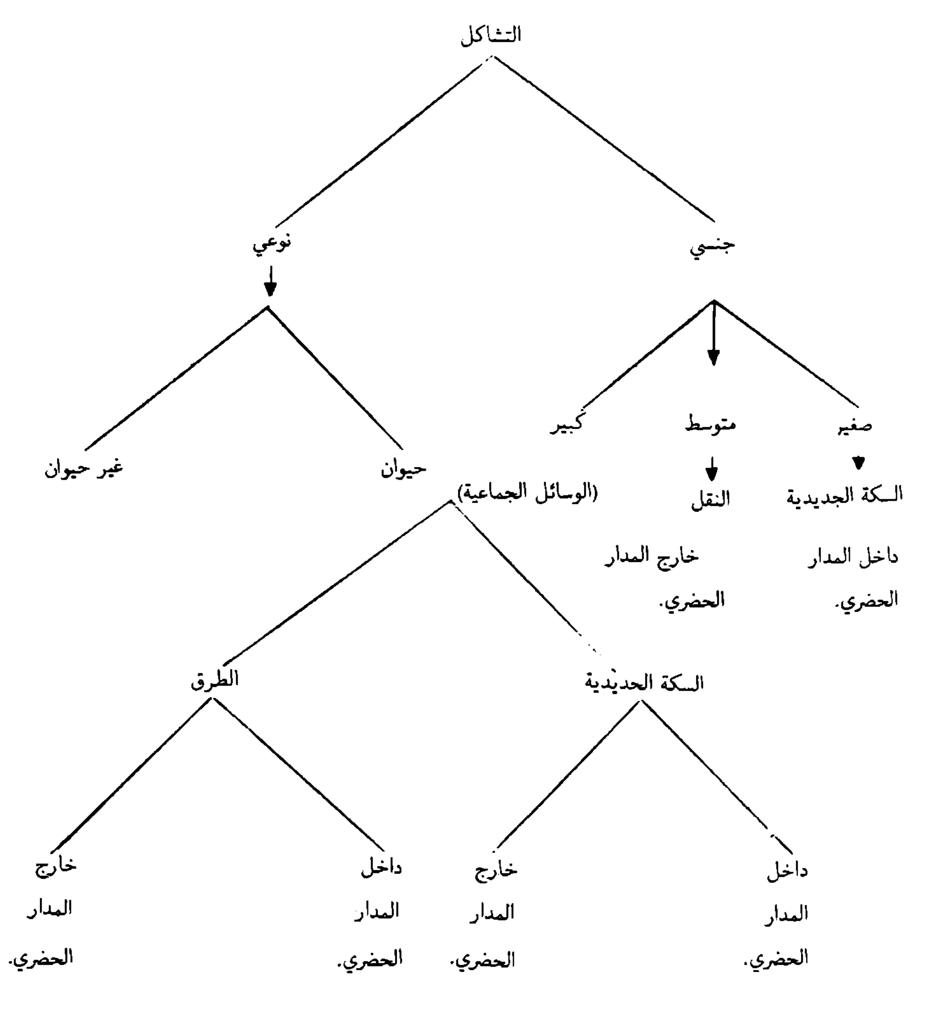
داخل المدار الحضري.

خارج المدار الحضري.

داخل المدار الحضري.

خارج المدار الحضري.

وثـالثهـا كبير، وهو موضوعـة كبرى مثل : حيوان / غير حيوان. وهنـاك تشـاكل نوعي، وهو مـا تكون من الخصـائص الـذاتيـة أو مـا تـألف من تشـاكل الأعراض. وإذا مـا رغبنـا في تركيب هذه المعطيات في شجرة فورفورية، فإنها تكون كالتالي :




الجديد في هذه الشجرة هو إضافة الطرف المتوسط تقليدا للصنافة السيميائيـة المتجليـة في المربع المشهور، وإن كان ليس له دور إجرائي في هذا السياق.

### 2. 2. نقد الشجرة الفورفورية

من خلال الأمثلة الثلاثة التي اخترنا تبين لنا مدى تأثير التحديد الأرسطي والفورفوري في الدراسات الدلالية السيميائية المعاصرة. وإذا ما تجرد القدماء لإبراز الثغرات التي يحتويها التحديد، فإن المحدثين أيضا سددوا سهام انتقادهم للتحليل المتوالي المقومي.

يكفي في هذا السياق الاكتفاء بثلاثة آراء أساسية حول هذا النوع من التحليل (أو التحديد)، فقد بينت ثغراته بما لا مزيد عليه.

وأولها «ميريل».[30] يرى هذا السيميائي أن التحليل بالمقومات يقتصر على التحديدات المعجمية، وخصوصا تحديد المفردات التي يمكن أن تحلل إلى مقومات ذاتية كالجنس والنوع والفصل. وبرهنة على آرائه، ساق أمثلة واردة عند «كاتز» و«فودور» فقد اعتمدا على التحديدات المعجمية مما جعلهما لا يعتبران سياق الخطاب والدلالة الإيحائية. وعدم مراعاة السياق والدلالة الإيحائية يؤدى إلى تجميد المفردة وإفقادها حيويتها، وحتى إذا ما وفقت هذه المنهاجية المعجمية في تحليل المفردة إلى مقوماتها النحوية والدلالية فإن عملها يبقى عملا تجزيئيا. ونتائج هذه المنهاجية أنها تناقض بعض الأوليات المعروفة في الدراسات اللغوية التاريخية، وبعض المبادئ الفلسفية كالاسمية، وبعض المفاهيم المتداولة في بعض الدراسات مثل العلاقة والتفاعل والدينامية.

وثانيها رأي «أمبرتوإيكو»[31] الذي انتبه منذ أمد طويل إلى قصور منهاجية «كاتز» و«فودور» التحديدية (1976)، ولكنه لم يعمق النظر في هذه المسألة إلا في كتابه : «الدلائلية وفلسفة اللغة»، فقد أرجع التحليل المتوالي أو المقومي إلى جذوره الضاربة في القدم. وليتجاوزه وضع تفرقة بين مفهومين : المعجم والموسوعة، وخصص فصلا بكامله لمناقشته، يقول «ايكو» : «هدف هذا الفصل هو أن نبرهن على عدم تماسك النموذج التحديدي القائم على الجنس والنوع والفصل في الشجرة الفورفورية والموسع من قبل بيوثوس خلال العصور الوسيطة كتأويل لإيساغوجي المكتوب من قبل فورفوريس الفينيقي في القرن الثالث المسيحي».[32]

(30) F. Merrell. op. cit. P. 31 – 39.

Umberto Eco. op. cit. P. 46 – 86.

(31) تكاد تتطابق ألفاظه مع أبي حامد الغزالي.

Umberto Eco. op. cit. P. 46.

(32) F. Rastier. op. cit. PP. 87 – 140. PP. 17 – 37.

لقد انتقد الشجرة الفورفورية وترتيبها للكليات الخمس. فقد يوضع ما هو جنس مكان الفصل، أو ما هو خاصة أو لازم أو عرض مكان الفصل، كما أن أي مفهوم قد يحتاج إلى حد مما يلزم عنه التسلسل أو الدور. هذا إذا اهتدى المحلل إليها واستوفاها. ويكاد يستحيل على المحلل أن يحيط بالمقومات الذاتية والأعراض لأنها لا متناهية. وقد يعثر الباحث على شجرة أو يصنعها من الفصول فقط، والفصول أعراض، والأعراض غير منتهية في العدد أو على الأقل لا محددة.

ورغم هذه الثغرات التي يطرحها التحديد بالشجرة الفورفورية كما نبه على ذلك كثير من المناطقة منذ العهد اليوناني - مرورا بالمناطقة المسلمين - إلى المناطقة واللسانيين المحدثين، فإنه شيء لا مناص منه مما يؤدي إلى ما يشبه الإحراج.

وثالثها : لعل من يمثل هذا الإحراج أو المفارقة هم السيميائيون الفرنسيون ومن اتبعهم. وسنمثل بأعمال «راستي» وخصوصا كتابه السابق الذكر «الدلالة التأويلية».[33] تتجلى المفارقة في أنه لمح إلى المناقشات التي دارت حول التحليل المتتالي والتحليل المقومي من نهاية الخمسينات إلى بداية السبعينات حول نموذج «كاتز» و«فودور» الساذج بالقياس إلى المقترحات الأوروبية (كَريماص وبوتي). وقد رفض هذا التحليل من قبل فلاسفة اللغة واللسانيين على السواء، لنفس الحيثيات التي تقدم ذكرها.

على أن «راستي» بعد هذا يقر بأن التحليل بالمقومات مستعمل جدا في تحليل الخطاب بمختلف اتجاهاته، وفي علم التربية، وفي الشعريات، وفي السيميائيات، وفي المعجميات وفي الذكاء الاصطناعي. ومع هذا الاستعمال، فقد تنوسيت الأسس الإبستمولوجية التي يقوم عليها : الإبستمولوجية البنيوية (المقومات القليلة)، والإبستمولوجية التوليدية (الأفكار الفطرية)، أو بتعبير آخر بين «أطروحتين... إحداهما أطروحة تجريبية تحمل **المكونات** إلى إدراك العالم، وثانيتهما الأطروحة المتعالية التي تحمل المكونات إلى مقولات الفكر الإنساني»،[34] وإن شئنا عبرنا بالخلاف بين الإبستمولوجية الأرسطية الواقعية والتجريبية، وبين الإبستمولوجية الأفلاطونية المثالية والاسمية. ومهما تنازعت الأطروحتان فإنهما يشتركان في أن «الجواهر» أو «الأفكار» هي عدد محدود.

وإذا ما نقلنا المفاهيم الفلسفية إلى الميدان السيميائي، فإننا نقول : إن الأطروحتين ليستا بمنأى عن الخطإ، فالمقومات ليست منحصرة بصفة نهائية وثابتة، فالعلاقة بين الكلمات

33) F. Rastier, op. cit. P. 27.
34) Umberto Eco, op. cit. P. 27.

تولد مقومات جديدة، ولكن هذا التوليد ليس بدون نهاية. ذلك أن وجود بنيات إبدالية معجمية تمنع في آن واحد من أن يكون عدد المقومات كبيرا جدا، لأن كل المفردات لا تتحاد، ولا أن يكون صغيرا جدا، لأن تركيب المفردات ليس حرا.

### 2. 3. من التحديد إلى الرسم

إن هذا التحليل الذي أساسه التحديد الأرسطي والشجرة الفورفورية لم يرفض نهائيا، ولم يسلم بعدم جدواه مطلقا، ولكن أغلب الباحثين يعترفون بجدواه، على شرط أن ينفتح على المقومات الناتجة عن السياق ويفرضها مدار الحديث. وهذا ما أكده باحث مثل «أمبرتوإيكو» في كتابه «نظرية الدلائلية»، وألح عليه في كتابه «دور القارئ» وفي مختلف أعماله الأخرى. وسنده في ذلك مفهوم السيرورة التأويلية اللامنتهية، إذ أن «كل مفردة» هي نص متوقع أو محتمل، وأي نص هو تمطيط لمفردة واحدة أو أكثر»، كما استند على بعض مفاهيم الذكاء الاصطناعي من مثل الأطر والمدونات.[35]

إذا كان التحديد ـ التحليل بالمقومات يمكن توسيعه أو اختزاله بحسب ما تفرضه علائق المفردات فيما بينها، فإن الخلاف يقع في تحليل المفردة نفسها لاختلاف المعرفة الخلفية. ولذلك اقترحت التفرقة بين المعرفة الجاهزة، معرفة الحس المشترك، وبين معرفة الخبراء، فأية مفردة ولتكن «وردة» يمكن أن يسند إليها الحس المشترك مقومات، ولكن معرفة الخبرة تحمل عليها مقومات تتنوع بحسب مجال العلم أو الفن الأدبي (المعرفة الكيميائية، والفيزيائية، والبيولوجية، والجيولوجية... والمعرفة الشعرية، والفلسفية..)[36] كل خبير في ميدانه ينظر إلى تحليل المفردة أو تحديد المصطلح من زاوية معرفته الخاصة به، ومعنى هذا أن كل نص معرفي معين يوجه تحديد المفردة أو المصطلح وجهة ملائمة.

يقوم السياق وكذلك مدار الحديث، إذن، بدور كبير في تحديد الشيء وترتيب مقوماته الذاتية والعرضية، أو في إسناد رسوم إليه، لأنه بدون سياق سينحصر التحليل في المفردات أو المصطلحات، أو المفاهيم الجزئية المنفصلة، أو يضل في متاهة المعرفة الخلفية التي لا يدري آخرها من أولها، هذا السياق يجب أن يكون، في آن واحد، نصيا، إذ كل نص يحدد مساره، وسياقيا للإضفاء عليه مزيدا من الأعراض التي ليست في النص. وتحديد المسار ونهايته لا

35) Umberto Eco. op. cit. P. 69.

36) Idem. P. 77.

يعني أنه نهائي وقاطع يبني عليه تأويل ممكن وحيد ودائم، لأن «تعبيرا ما يمكن أن يؤول في أوقات مختلفة وبكيفيات مختلفة، بحسب إطار نظرية ثقافية معينة»، فمثل هذا الحصر هو ما حاولته الشجرة الفورفورية، و«لكنها لم تنجح لأنها لم تستطع، ولكن بعض النظريات المعاصرة اللغوية ما زالت تحاول إعادة الحياة لهذا الحلم المستحيل تحقيقه».[37]

تحليل المفردات المليئة في إطار تجزيئي تبين قصوره، ولذلك فإن كثيرا من الباحثين عدله وأضاف إليه، فقد فرق بين المقومات الملاصقة، وبين المقومات العارضة، لتحليل المفردات في سياقها ومساقها، وقد يؤدى هذا التحليل إلى التطويل من جهة، ولكنه يكون بمثابة مصفاة للمعلومات المتهافتة على المحلل من ذاكرته، من جهة أخرى.

إن هذه التهذيبات التي أدخلت على التحديد ـ التحليل بالمقومات في صيغته الأولى التي هي متأثرة بالتحديدات المنطقية الموروثة ـ جعلته أداة منهاجية لا غنى عنها في ميادين شتى.

### 3. 1. الرسم والبيان

انه أداة لتحليل المفردات منعزلة أو مركبة، والجمل، والنص، وعلى هذا، فان من أراد أن يدرس البيان العربيَ بكنايته ومجازه المرسل واستعارته عليه أن ينطلق منه : مفردة «رجل» مثلا لها مقومات ذاتية :

[+ حي]، [+ إنسان]، [+ ذكر]، [+ بالغ]، [+ ماش]، [+ ذو قدمين]...

مفردة «رجل !» إذا ما نقطت بنبرة الإحترام والتقدير، أو السخرية والاستهزاء، وضبط سياق الحديث، وعرفت مقاصد المتكلم، فإنها تنضاف إليها الأعراض التالية :

[+ الشجاعة]، [+ الكرم]...
أو [+ التخنث]، [+ النذالة]...

37) Idem. P. 87.

هذه الأعراض تصبح مقومات ضرورية ضمن التحديد بالرسم، ذلك أنها عرضية من حيث مرتبتها في مقومات «رجل»، ولكنها ضرورية من حيث أنها تصبح مميزة لـ «رجل» من غيره، فإذا قلنا : جاء أحمد الرباطي المتزوج، فان مقومات «أحمد» الجوهرية معروفة ومشترك فيها مع غيره، ولذلك، فإن «فصل» «الرباطي» العرضي يميزه عن الرجال الآخرين الذين ليسوا برباطيين، ولكن «فصل» «الرباطي» نفسه لا يستطيع أن ينتقيه من الرجال الآخرين الذين يسكنون الرباط، على أن «فصل» «المتزوج» يذهب بنا خطوة في عملية الفرز والتبئير... وقد تنضاف «فصول» أخرى حتى يمكن الوصول إلى «الفصل» الذي لا يفصل أو الجزء الذي لا يتجزأ، فإذا ما استطاع المحدد ـ المحلل أن يصل إلى هذا «الفصل» النووي، فإنه يصبح، حينئذ، «فصلا» ضروريا فارقا، بعد أن كان «فصلا» عرضيا، محققا لمبدأ التبادل : صاحب الكتاب = سيبويه؛ سيبويه = صاحب الكتاب؛ نؤوم الضحى = هند؛ هند = نؤوم الضحى؛ جاء المضياف = جاء زيد؛ جاء زيد = جاء المضياف؛ يحيى بن لا الأذى = صاحب القنفذ؛ صاحب القنفذ = يحيى بن لا الأذى. ولكن هذا التساوي قلما يقع، وإنما الغالب والشائع في الحمل اللغوي الطبيعي هو الاستلزام، مثل : زيد C طويل النجاد، زيد C المضياف...

ومهما يكن الأمر، فقد يضرب صفحا عن المقومات الذاتية ويذكر عوض يعتقد أنّهُ ما يميز شخصا أو شيئا أو حدثا لرسمه، لأن التحديد بالأجناس والأنواع والفصول والخاصة والعرض، أو بالجنس القريب والفصل صعب المنال لوجود «المعقول من الموجودات التي لا تحس» وهذه لا تحد، و«إنما تعرف بأسمائها وتوصف بأوصاف غير محيطة بها».[38]

### 3. 2. الرسم والكناية والمجاز المرسل

في ضوء هذا التصور الرسمي يمكن الإسهام في حل معضلة ما يدعى بالكناية والمجاز المرسل في البلاغة العربية القديمة. ومع وجود دراسات جد مهمة حول هذه الظواهر اللغوية، فإننا نظن أن مساهمات «أمبرتوإيكو» تبقى أساسية وكذلك النظرية التفاعلية التي بسط أسسها «ماكس بلاك».

لهذا، فإننا سنبعد تحليلات البلاغيين المتأخرين لتأثيرها بالتحديد القائم على الشجرة الفورفورية التي يحتاج كل وصف منها إلى تحليل مما يؤدى إلى التسلسل أو الدور، مثل : مضياف [+ كَثْرَةُ الرماد] [+ كثرة الجمر]، [+ كثرة احراق الحطب تحت القدور]، [+ كثرة الطبائخ]، [+ كثرة الأكلة]، [+ كثرة الضيوف]...

(38) أبو إسحاق بن وهب، الكتاب المذكور والصفحة.

هذا التحليل يصح في :

نؤوم الضحى [+ مرفهة]، [+ لها من يخدمها]، [+ كثيرة الخدم]، [+ غنية]...

بل انه يصدق على :

طويل النجاد [+ طويل]، [+ مُقَلَّدٌ]، [+ مرئى]...

لهذا، فإننا سنتبنى «نظرية» الرسم الذي يكون بالأعراض والخواص، ونعتبر أي عرض مذكور كاف بنفسه بدون تفصيل في الإجراء، تفرقة بين الرجوع إلى الصفة أو الموصوف، إن الكناية في إطار العمل هذا هي مطلق رسم، أو مجرد حمل. ولذلك يتساوى التعبير بـ : جاء المضياف، أو ذهب الذي تغشاه كثرة الأكلة، أو اهتزت القاعة لكثير الرماد... أو رأيت كثيرة الخدم، أو درست نؤوم الضحى.

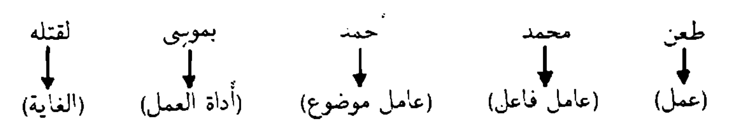
هذا الذي ذهبنا إليه هو ما يأخذ به بعض فلاسفة اللغة من مثل «ديفدسن» الذي تقوم أطروحته على أن «الاستعارات تعني ما تعنيه الكلمات في تأويلها الأكثر حرفية وليس أكثر من ذلك»، فحينما يقول أحد الناس «هارولد خنزير» فإنه يؤكد حرفيا أن «هارولد خنزير» وان جملته لا تعني أكثر من ذلك»[39] وعلى هذا الأساس، فان أي وصف يذكر في حيز الشيء المرسوم أو المحمول عليه يرجع إليه مباشرة بدون وسائط. على أن هذا الموقف يمكن أن يعترض عليه بأنه مسطح للغة وجاعل منها ذات بعد واحد وسالب إياها آلية الاستدلال التي يقوم عليها فهم الخطاب اللغوي، ومنح اجتهادات نظرية ومنهاجية في تحليل الخطاب وتأويله... والحق أن هذه الاعتراضات وجيهة يجب أن تأخذها النظرية الرسمية في الحسبان. وعليه فإن ما ينبغي أن يستغنى عنه هو تعداد الوسائط المؤدى إلى التحليل الطويل أو اللانهائي، ولهذا، فإننا نرى في مثال «ديفدسن» تعبيرا مجازيا يؤدي إلى تشعبين تبعا للسياق وللأعراف اللغوية السائدة بين مجموعة من الناس.

قد ينقل رسم شيء إلى آخر بالانزياح للتعبير عنه، مثل أن يقال : حضر صاحب الحافر، واعتبارا للأعراف اللغوية، فإن «الحافر» من خواص الحمار، ولكن نقلت هذه الخاصة تجوزا إلى الإنسان مما ينتج عنه : هذا الانسان حمار، وفي كلتا الحالتين : الحقيقة والتجوز، فإن «الحافر» رسم وحسب.

كما أن نظرية «الرسم» هذه تشمل ما دعي بالتحليل العاملي والعلّي، فالتحليل العاملي يراعي العوامل التي قامت بالعمل، وهي العامل الفاعل، والعامل الموضوع الذي مورس عليه

39) Robert J. Fogelin (1988). Fuguratively Speaking, P. 53 Vale University, Press.

العمل، والعامل المضاد لإنجاز العمل، والأداة المستعملة لإنجاز العمل، وهدف العمل، وقد يمثل لهذا بـ :




ولكن هذا العمل غالبا تحذف جل عناصره ويبقى على واحد منها ليتحول إلى رمز، فقد تذكر الغاية «القتل»، أو تبرز الأداة «(موسى)، أو يلح على الموضوع «أحمد» أو ينبه على العامل الفاعل «محمد»، أو يلفت الانتباه إلى العمل «طعن»، وأمثلة هذا على التوالي هي : إشمأززنا **للقتل**، وأخفنا **بالموسى**، وأشفقنا على **أحمد**، وروعنا **محمد**، وساقتنا الأقدار إلى مشاهدة **الطعن**

هذا التحديد العاملي يتداخل مع التحديد العلّي الذي هو قديم قدم الفلسفة الأرسطية ونظريتها في التحديد. وقد أخذ به فلاسفة المسلمين ومناطقتهم. ولنكتف في هذا السياق بنص للغزالي. يقول : «إن العلل الذاتية من هذا الجنس تدخل في حدود الأشياء كما تدخل في براهينها، فكل ماله علة فلا بد من ذكر علّته الذاتية في حده لتتم صورة ذاته. وقد تدخل العلل الأربعة في حد الشيء الذي له العلل الأربعة كقوله في حد (القادوم) : إنه آلة صناعية من حديد، شكله كذا، يقطع به الخشب نحتا، فقوله :

آلة : جنس

صناعية : يدل على المبدأ الفاعل

شكله كذا : يدل على الصورة

الحديد : يدل على المادة

النحت : يدل على الغاية»

وقد يعبر عن هذه العلل أحيانا بـ «العلة الفاعلية، والعلة الصورية، والعلة القابلية (المادية) والعلة الغائية»، وتأسيسا على هذه العلل، فإن كل اسم ما يستلزم التحليل التالي :

اسم ما C الصورة، الصانع أو الفاعل، المادة، الغاية.

جمعا بين التحليلين العاملي والعلي يمكن تفسير التعابير الكنائية التالية :[40]

1 ـ له علي يد ← منح محمد أحمد دراهم بيده تنعما عليه.

2 ـ أرسل الضابط عينا ← أرسل الضابط جنديا ليرى **بعينيه** العدو.

3 ـ رعينا غيثا ← رعينا النبات الذي نما **بالغيث.**

4 ـ أصابنا السماء ← أصابتنا الأمطار النازلة من السماء.

5 ـ أمطرت السماء نباتا ← أمطرت السماء غيثا أحدث نباتا.

وتوضيح هذا :

| | + العمل | + الفاعل العامل | + العامل المعاني | + الأداة | + الشكل | + المادة | + الغاية |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 1 | المنح | التاريخ | أحمد | بيده | شكل الإنسان | مما يكون منه الإنسان | للإنعام |
| 2 | الإرسال | الضابط | الجندي | بعينيه | شكل الجندي | مما يكون منه الإنسان | للاستطلاع |
| 3 | الرعي | الرعاة | النبات | بالغيث | شكل النبات | مما يكون منه النبات | للرعي |
| 4 | الإصابة | الأمطار | المصابين | بالسماء | شكل الأمطار | مما تكون منه الأمطار | للري |
| 5 | الإمطار | السماء | نباتا | (الغيم) | شكل الغيث | مما يتكون منه الغيث | للرعي |

40) لمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع إلى كتب البلاغة العربية، «فصل» الكناية. وعلى سبيل المثال : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، للإمام فحر الدين الرازي، ص 270 ـ 272. القاعدة الخامسة : في الكناية، دار العلم للملايين.
أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، **مفتاح العلوم** ـ أقسام الكناية. ص 304 ـ 411.

قد ركز في أغلب هذه التراكيب على الأداة، فاليد هي أساس الفعل عرفيا وثقافيا وواقعيا، لأن بها «يكون البطش والضرب والقطع والأخذ والدفع، والوضع والرفع وغير ذلك من الأفاعيل»، وبالعين تقع الرؤية للتمييز بين الأشياء وأشكالها وأحجامها وألوانها وللاقتراب منها أو الابتعاد عنها.. وبالغيث جعل كل شيء حيا..

ومهما يكن الأمر، فإن التركيز قد يقع على الأداة أو الوظيفة أو الشكل أو المادة. وتكون وراء هذا التركيز دوافع معرفية أو دينية أو عملية. لكن هذا التحليل العاملي والعلي، بهذه الصورة، غير كافٍ لضبط كل الأمثلة التي يؤتى بها على أنها كناية أو مجاز مرسل. لذلك ينبغي إغناء الخطاطة السابقة بإضافات حتى يمكن أن تستوعب كثيرا منها. ولفعل هذا يجب أن نرصد سلوك الكناية تجاه الصفات والوظائف. فقد تبرز بعضها وتجمد أخر، وقد تُلغى أحيانا أخرى، فلننظر في الإلغاء من خلال الأمثلة التالية :

1 - يجعلون أصابعهم في آذانهم.

2 - وضربنا على آذانهم.

3 - ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم.

4 - يضرب بسيفه في الماء.

| | + العمل | + الفاعل العامل | + العامل المعاني | + الأداة | + الشكل | + المادة | - الغاية |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 1 | الجعل | الناس | الأصابع | الأذن | طويل... | عظام وأعصاب | السماع |
| 2 | الضرب | الله | الآذان | الأذن | مجوف... | عظام وأعصاب | السماع |
| 3 | الختم | الله | الآذان | الأذن | مجوف... | لحم وأعصاب | السماع |
| 4 | الضرب | الضارب | الماء | السيف | طويل طاغ | حديد | الضرب |

وواضح أن الفرق بين الخطاطتين هو : أن الغاية والوظيفة سلبت في الثانية، ومعنى هذا أنه عندما تحذف علة من العلل أو تلغى تحصل كناية منزاحة عن قوانين الطبيعة، وعلى هذا، فإن الرسم، كالشأن في التحديد، يقع بإثبات صفات أو سلبها. إن هذا الانزياح يخرج بنا من مجال رسم الشيء إلى المجاز الذي يمكن تحويل تعابيره إلى طرفين تربط بينهما علاقة المماثلة، مثا : «واسأل القرية»، وآتوا اليتامى أموالهم».

### 4. 1. تجاوزا للابستمولوجية الأرسطية

تبين أن التحديد الأرسطي المزيج من ميتافيزيقا الجواهر ومن نزعة تجريبية ليس شاملا لتعريف كل الأشياء تعريفا يجعل الإنسان يدرك ماهيتها، فقد يتأبّى عليه تحديد المعقول من الموجودات، والموجودات القابلة للتحديد قد يختلف في ترتيب مقوماتها، وقد يستحيل رصدها كلها، كما أن كل مقوم منها قد يحتاج إلى تحليل مما يؤدى إلى الدور أو التسلسل. وقد تفطن قدماء المناطقة من اليونانيين والمسلمين للخلفيات التي نما فيها التحديد الأرسطي، وللثغرات التي يحتويها: على أنه بقي يعمل جهرة أو خفية في بعض الاتجاهات الدلالية والسيميائية المعاصرة مما يجعل بعض المحدثين يتصدون لانتقادهم وتبيان قصور منهاجيتهم، مستعملين لغة تكاد تتطابق مع لغة أسلافهم من المناطقة.

إن محاولة التجاوز قامت بها دراسات عديدة في العقود الثلاثة الأخيرة، وهي كثيرة ومتشعبة، ومع ذلك يمكن أن تصنف إلى ثلاثة اتجاهات أساسية :

□ نقد الإبستمولوجية الأرسطية وتجلياتها في التحديد وفي الإجراءات الاستعارية، رغم أن هذا الإتجاه لم ينفصل نهائيا عن أرسطو. فقد اهتم بالاستعارة في الكلمة الواحدة، وبالانزياح عن المعنى الحرفي لإنتاج معنى مجازي، ومفهوم المماثلة، وبالدفاع عن نظرية الاستعارة التشبيهية. بيد أن هناك نظريات أخرى تزعم أنها تذهب أبعد من ميراث أرسطو من مثل النظريات التفاعلية والنظرية التناقضية ونظرية التعارض اللغوي، ونظرية الدلالة الأيقونية والنظريات الحدسية والنظرية السياقية...

□ هذه النظريات لم تقنع «كَامبل ليزلوط»[41] فوضعتها كلها ضمن «الأرسطية الجديدة»، ومقترحة بديلا لها في غير الإطار الأرسطي موظفة دلائلية «برس» والدلالة الظّاهراتية لـ «رومان انكَاردن».

41) Gumpel, Liselotte (1984). Metaphor Reexamined: A Non – Aristotelian Perspective. Bloomington.

□ ورأي «كامبل» فيه شيء كثير من الصواب، ولذلك فإننا نظن أن أهم من كشف أبعاد الإبستمولوجية الأرسطية والإبستمولوجية الموضوعيّانيّة، هم أصحاب الدلالة المعرفية وعلى رأسهم «مارك دجونسون» و«جورج لايكوف» في أعمالهما الكثيرة.

أثرت منهاجية التحديد الأرسطي والشجرة الفورفورية في أغلب العلوم الإسلامية، ومنها البيان العربي، ولذلك حاولنا في الصفحات السابقة الكشف عن هذه الخلفية التي تحكم آليات إجراء ما يسمى في البلاغة بالكناية والمجاز المرسل، فقد عددت التقسيمات وتعددت التحليلات، إذ نجد كناية عن موصوف، وكناية عن صفة، وكناية عن نسبة، ومجازا مرسلا ناتجا عن السببية أو المسببية أو الحالية أو المحلية ...الخ.

تناولناهما هنا ــ ضمن إطار التحديد الأرسطي، ولكن بعد أن نحينا الشروط المستحيلة التي لا تتماشى ومرونة اللغة الطبيعية، أي أننا تبنينا التحديد بالرسم، لأن القدماء والمحدثين لم يرفضوه ولا سبيل لهم إلى ذلك، إذ إن كل موجود يحتاج إلى صفات تسند إليه أو تحمل عليه ليعرف أو ينمو ويتناسل.

ومع هذا كله، فإن الأوان حان لتبني إبستمولوجية معاصرة تبعد المفاهيم التراثية اليونانية العتيقة، وتضع مفاهيم جديدة مثل الترابط والتشعب[42] والمفهوم والمجال التداولي بما يحتويه من مقصدية ومقتضيات أحوال، وإن الفصول التالية تبيان لما تبقى من الإبستمولوجية الأرسطية وإشعار بقدوم إبستمولوجية معاصرة فيها إمتدادات و«انقطاعات».

42) أجلنا البحث في هذه المسألة لأنها تحتاج إلى بحوث ممهدة مثل : أسبقية الحرفي أو الاستعاري، وحين تحدد الأسبقية يمكن تفضيل أحد المفهومين على الآخر.

الفصــــل الثانـــــي

# 2. التقييـــــس

## 1.2 الإشكال

تبين لنا أن الرسوم لابد منها لأنها خطوة أولى لإدراك المفرد ثم لإلحاق مفردات أخرى به، وأكثر ما يتجلى هذا فيما يمكن أن ندعوه بالتقييس. ونعني به هنا قياس مفرد على مفرد أو حدث على حدث أو حكم على حكم، أو بنية على بنية...

كما حللنا سابقا ما يسمى بالكناية والمجاز المرسل في إطار الرسم، فإننا سننظر إلى الاستعارة في علاقتها بقياس التمثيل، اعتبارا للإشكال الذي يشغلنا، ونعني به طبيعة الوضع المعرفي للاستعارة، فإذا كان علماء الأصول المسلمون ناقشوا الوضع المعرفي لقياس التمثيل، فإن المهتم يجد شيئا ذا بال لمناقشة الإشكال نفسه في مجال الاستعارة، لأن قياس التمثيل والاستعارة تحكمها الآليات نفسها، وإن اختلفت أهدافهما. وهذا شيء لا ندعيه نحن وحدنا وإنما أثبت العلاقة بين قياس التمثيل والاستعارة كذلك كثير من الباحثين بل ذهب بعضهم إلى أن «النماذج والصور والاستعارات ليست إلا قياسات»[1] لأن كل هذه العمليات الذهنية ينتقل فيها من المعروف إلى اللامعروف، ومع ذلك فقد التمست بعض الفروق بين قياس التمثيل والاستعارة، أي إذا كانت درجات المماثلة كثيرة بين الطرفين فذلك هو القياس، وإن كانت قليلة فتلك هي الاستعارة،[2] ولا يهمنا الخلاف هنا إلا بمقدار ما تشغلنا المماثلة بين

(1) Robert R. Hoffman (1985). « Some Implications of Metaphor For Philosophy and psychololology of Science » pp. 327-379.
in: Wolf Paprotte and René Priven (Eds.). The Ubiquity of Metaphor. Amsterdam / Philadelphia.

(2) Mac Cormac. Earl R. (1985): A Cognitive Theory of Metaphor pp. 23-24. Cambridge, MA.

الآليتين. ولتبيان هذا سنتعرض لآليات القياس ووضعه المعرفي لدى الأصوليين من المسلمين، ولدى العلماء المعاصرين، ثم نتلوه بآليات الاستعارة ووضعها المعرفي قديما وحديثا.

### 2. 2. 1. آليات القياس

لا يخفى أن قياس التمثيل مثله مثل باقي العلوم الإسلامية العقلية متأثر بالدراسات المنطقية، وخصوصا التحديد كما بينا في الفصل السابق، ولا يجادل في هذا إلا مكابر عنيد؛ على أن الدراسات العربية إلى الآن لم تحاول أن تبين عمق هذا التأثير ومداه، وإنما تجاهلته والتمست تبادل التأثير بين العلوم الإسلامية نفسها، هكذا يجد المهتم بعض الدراسات التي تبين العلاقات بين القياس الأصولي وعلم النحو واللغة... ولكنه لا يجد إلى هذا الوقت ـ فيما نعلم ـ دراسات جادة تبرز الوشائج الوثيقة بين الاستعارة وقياس التمثيل.

ليس لقياس التمثيل تحديد وحيد، ولكن مهما اختلف فيه، فإن هناك أركانا ضرورية بدونها لا يسمى القياس قياس تمثيل :

- أصل وهو المقيس عليه.
- فرع وهو المقيس.
- حكم الأصل.
- علة.

وقد يلحق الفرع بالأصول لمشابهة بين الأصل (النظير) وملحقه في صفة لإثبات حكم، لكن قياس التمثيل هذا ينقسم إلى أربعة أنواع :

- حمل فرع على أصل.
- حمل أصل على فرع.
- حمل نظير على نظير.
- حمل ضدّ على ضدّ.

على أن بعض التيارات الإسلامية كانت ترفض الأخذ بالقياس جملة وتفصيلا كالظاهرية والإمامية وبعض المناطقة وبعض المتصوفة.

(3) أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، تحقيق سعيد الأفغاني، مطبعة جامعة دمشق 1379 هـ / 1960 م.

لعل من أشهر من حاول أن يبطل القياس من الظاهرية الفقيه ابن حزم الأندلسي في كتبه، وخصوصا في «ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل»،[3] والحجج التي يقدمها هي : أن القياس بدعة حدثت في القرن الثاني، ثم فشا وظهر في القرن الثالث، وأنه لم ينعقد عليه إجماع إذ قال به بعض الناس وأنكره سائرهم وتبرءوا منه، وأن الأقيسة متعارضة يبطل بعضها بعضا، وأن المعرفة التي يؤدي إليها ظنّ «والظنّ باطل»،[4] هذه الحجج أو ما يشبهها هي التي يجدها القارئ لدى الشيعة والمناطقة والمتصوفة.[5]

### 2. 3. 2. وضعه المعرفي

#### 2. 3. 2. 1. لدى الأصوليين

بيد أن أغلب الطوائف الإسلامية تأخذ بقياس التمثيل، وإن كانت تختلف في وضعه المعرفي، فكثير منها يعترف صراحة بأن القياس «لا يفيد غير الظن»[6] لأن الفرع يقاس «على الأصل عند وجود ما يظن شهرته علة لحكم الأصل..» ولكن الفقيه ابن تيمية يتجاوز هذا ليجعل لقياس التمثيل وضعا يكاد يضاهي ما يمنحه الباحثون المعاصرون للمماثلة والمشابهة من دور في اكتساب المعرفة وفي خلقها، يقول إبن تيمية : «فأما دعواهم إن هذا لا يفيد العلم فهو غلط محض محسوس، بل عامة علوم بني آدم العقلية المحضة هي من قياس التمثيل»،[7] وإن هذا القياس هو «أبلغ في إفادة العلم اليقين».[8] ودوافع إبن تيمية لا تخفى في موقفه هذا، فهو يسدد سهام نقده بهذه القولة وما أشبهها إلى القياس الأرسطي الصوري، كما كانت حوافز ابن حزم غير مستترة إذ كان قصده الطعن في القياس الفقهي وتفضيل القياس الأرسطي عليه في سياق مساجلته للمالكية.

مهما كان الخلاف في وضعية القياس المعرفية باعتبارها ظنية أو قطعية بين الآخذين به، فإنهم جميعا أسهموا في وضع ضوابط وقواعد لضمان نوع من الاتساق والانسجام لما يستدل منه أو يستنتج. هكذا نجدهم وضعوا شروطا للفرع متعددة، أهمها أن يكون فيه **اشتباه** يربط

4) الكتاب المذكور، ص 68، وص 5، وص 56.

5) علي بن محمد الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، الجزء الثالث ص 261. «في القياس». ـ دار الكتب العلمية. وانظر الجزء الرابع، وخصوصا ص 9، 10، 59، 60.

6) الآمدي، الكتاب المذكور، (ج : 3، ص 264).

7) ابن تيمية، فتاوي، المجلد التاسع، كتاب المنطق، ص 20.

8) ما ذكر، ص 19.

بينه وبين الأصل، وهذا الاشتباه يعتمد على «أمر جامع»[9] بينهما، فإذا لم يكن الأمر الجامع فلا قياس، والأمر الجامع هذا يطلق عليه إسم الوصف أحيانا، وقد اشترط فيه أن يكون ظاهرا جليا عريا عن الاضطراب.

علاقة المشابهة والمماثلة تفترض أن يكون هناك شيئان : أصل وفرع، ولضبط العلاقة بينهما يحلل الأصل إلى مكوناته أو مقوماته أو صفاته الذاتية والعرضية فيختار بعض منها لإسقاطه على الفرع، على أن ما يسقط يجب أن يكون جامعا متفقا عليه بأنه وصف منضبط مطرد غير مضطرب علة في الحكم على جهة القطع أو الظن، فإذا لم تتوافر هذه الشروط، فإن المحلل يلجأ، حينئذ، للسبر والتقسيم لإثبات العلة / الوصف، وإذا لم يطمئن إلى ما وصل إليه، فإنه يمارس عملية فرز للوصف أو الأوصاف الصحيحة لأن تكون علة في الحكم.

هذه العملية، تتضمن، إذن، أصلا وفرعا، والفرع يحمل على الأصل، ولكن قد يطرح سؤال، وهو : ألا يحمل الأصل على الفرع ؟ قد يكون الجواب بالإيجاب ما دام الأصوليون جعلوا من أقسام القياس «حمل أصل على فرع»،[10] وقد يكون، مع ذلك، بالنفي اعتبارا لقول بعض الأصوليين : «إن القياس لا يشترط فيه أن يكون المعنى المناسب للحكم في الفرع أشد مناسبة له من حكم الأصل إجماعا».[11]

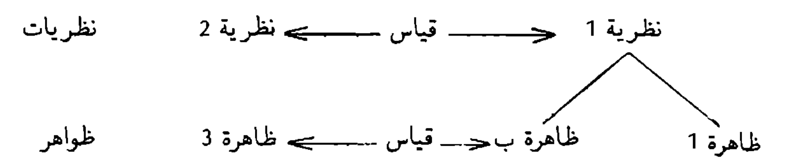
رأينا اختلاف مفكري الإسلام في قياس التمثيل فرفضته الظاهرية والشيعة وبعض المناطقة والمتصوفة لأنه لا يقوم على أسس مضبوطة، وتبعا لذلك لا يؤدى إلى أحكام قارة لاختلاف وجهات نظر القائسين، ولكن أغلب مفكري الإسلام قبله وارتضاه طريقا لخلق معرفة جديدة، وإن كانت معرفة ظنية لا قطعية، ولذلك اجتهدوا في تقديم الضوابط ووصف الطرق المؤدية إلى تلك المعرفة، لأن قياس التمثيل يخلقون به ما قد يؤدي إلى دوس الأعراف والتقاليد أو هلاك الأشخاص، أو ضياع الأموال.

### 2. 3. 2. 2. لدى العلماء المعاصرين

وقد يجد الباحث مشابهات بين آليات القياس لدى الأصوليين الموظفة لإثبات حكم شرعي وبين آليات القياس التي وضعها المحدثون لاكتشاف نظرية جديدة أو تبريرها، أو للإسهام في عملية حل المشاكل. وقد خضع مفهوم القياس بدوره إلى تطور عميق، ففي دلالته

9) انظر تلخيصا للأسس الأصولية في كتاب سعيد الأفغاني، في أصول النحو. ط 3. مطبعة جامعة دمشق، 1383 هـ / 1964 م.
10) هذا ما أثبته سعيد الأفغاني في الكتاب المذكور، وسنزيد المشكل إيضاحا عند الكلام على الاستعارة.
11) الآمدي، الأحكام... (ج. 3، ص 98).

الأولى كان يعني الخطاطة التعادلية التالية : أ : ب : : جـ : د، «ولكن أرسطو وَسَّعَ مفهوم الكلمة ليدل بها على عملية التقاء المشابهات من المفاهيم وادراكها»،[12] ولعل المحدثين، إذا صح فهمنا، وظفوا المفهومين معا كما يتضح من الخطاطة التي تقدمها كتب المنطق والإبستمولوجيا. والخطاطة هي :[13]




ومعيار القياس هو :

أ هو ب، ك، ر، ص.

ب هو ب، ك، ر.

---

إذن : ب هو ص.

ومعنى هذا أنه يمكن وضع نظرية جديدة بالاعتماد على نظرية قديمة، كما يتيسر فهم ظاهرة ب على أساس ما يعرف عن ظاهرة أ، وعلى ضوئهما تدرك ظاهرة 3. فقد فهمت فرضية الأمواج الصوتية بما يعرف عن الصوت، وفر الانتقاء الطبيعي بما هو متداول في مجال الانتقاء الاصطناعي. وأساس هذا القياس هو وجود خاصية ص في ب وتشترك في عدد من الخصائص الأخرى مع أ التي لها خاصية ص، على أن لهذه المعرفة الحاصلة عن القياس خصوما، فإذا ما اقترح أنصار القياس مقاربة تحت عنوان «الإبستمولوجية التطورية» اقتداء بالمؤسس «داروين» الذي قايس بين نمو الأنواع البيولوجية وبين نمو النظريات العلمية، فإن المناوئين يرون أن «المقايسة بين التطور الإبستمولوجي والبيولوجي تعوق فهم النمو العلمي ولا تعززه».[14]

ليست الدراسة الإبستمولوجية لمركز القياس بين أنواع الآليات المعرفية الأخرى هدفنا هنا، وإنما نتوخى تبيان الآليات المجردة التي يقوم عليها، وإظهار تسرب هذه الآليات إلى مجالات عديدة من الفكر الإسلامي، وإلى المناقشات الدائرة حول دور المعرفة القياسية

(12) Robert R. Hoffman, (1985), p. 350.

(13) Thagard P. (1988). Computational Philosophy of Science. pp. 99-95 and (101-111).

(14) Thagard p. (1988), p. 111.

وحدودها وآفاقها في الوقت الحاضر،[15] وإلى التأكيد على أن الاستعارة بنيت عليها، وهذا هو بيت القصيد.

### 2. 3. 1. آليات الاستعارة

إذن ما يهمنا نحن، بحكم هدفنا، هو الآليات التي تتحكم فيه والمعرفة التي تنتج عنه، ولا تهمنا المضامين والمواد التي اختلف حولها القدماء. لذلك نريد إثبات علاقة الاستعارة بقياس التمثيل، وهذه محاولة لم يقم بها القدماء ولا المحدثون، وعقد مشابهة بين مواقف الباحثين القدامى من قياس التمثيل ووضعه المعرفي، ومواقف المحدثين من الاستعارة ووضعها المعرفي.

على هذا، فإننا سنتجرأ على التقريب بين الآليتين على الشكل التالي :

- □ الفرع = الموضوع الأول.
- □ الأصل = الموضوع الثاني.
- □ العلة = المقوم (الصفة) المشتركة بين الموضوع الأول والموضوع الثاني.
- □ الحكم = مطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطب ليفعل أو يكف أو ينفعل، أو يتعجب...

كما أن الإستعارة تنقسم إلى :

- □ حمل الموضوع الأول على الموضوع الثاني.
- □ حمل الموضوع الثاني على الموضوع الأول.
- □ حمل نظير على نظير (استعارة وفاقية).
- □ حمل ضد على ضد (استعارة عنادية).

فالاستعارة، إذن، مثل القياس تتركب من طرفين، وهذا شيء معروف في كتب البلاغة العربية، يقول السكاكي : «أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به، كما تقول : / في الحمام أسد /، وأنت تريد / الشجاع / مدعيا أنه من جنس الأسود فتثبت للشجاع ما يخص المشبه به، وهو إسم جنسه مع سد طريق التشبيه بإفراده في الذكر»،[16] وكما هو واضح من هذا القول أن هناك طرفا مذكورا وطرفا مضمرا وأحدهما مشبه (الموضوع الأول)، وثانيهما

15) خصص «ثاكَرد» فصلا مطولا لما أسماه بالتفكير بالمشابهة، وقد انتقد هذا التفكير والمعرفة الناتجة عنه، وعليه فيجب التنبه إلى الفرق بين المعرفة القياسية والمعرفة الناتجة عن التفكير بالمماثلة انظر : ص 162 ـ 168.

16) السكاكي، مفتاح العلوم، ص 369.

مشبه به (الموضوع الثاني)، وعند الإجراء يحلّل المشبه به إلى صفاته الذاتية ولوازمه، إذا أمكن، واعراضه ثم يسند بعضها إلى المشبه ليدعي دخوله في جنس المشبه به، على هذا، فإن الموضوع الأول يكتسب بعضا من الموضوع الثاني. ويصير الموضوع الثاني يمتلك بعضا من الموضوع الأول، وعن طريق التوليف بينهما يتداخلان ويتفاعلان، فحينما يقال : رجل أسد، المنية أسد، قد يمنح لـ / رجل / الشجاعة، ولـ / المنية / المخلب والناب، هذا المنح للأوصاف الجامعة لكلا الطرفين يجعل / رجل / أسدا، و / أسد / رجلا، و / المنية / أسدا، و / أسد / المنية، كلا الموضوعين يقتل ويفتك ويلحق الضرر للتفاعل القائم على المماثلة والمخالفة، ولعل هذا ما نبه عليه السكاكي بقوله : «وهذا شأن العارية، فإن المستعير يبرز معها في معرض المستعار منه لا يتفاوتان الا في أن أحدهما، إذا فتش عنها مالك، والآخر ليس كذلك».[17]

إذا كانت الاستعارة في الأصل «تعتمد إدخال المستعار له في جنس المستعار»، فإنها، في نفس الوقت، تجعل الطرفين يتفاعلان ويتداخلان، ولكن عملية خلق التفاعل بينهما تسبقها عملية إدراك الصفات الذاتية واللوازم، والأعراض على الأقل لكل من الطرفين أو الموضوعين، لكن ما طبيعة الموضوع المعرفية التي يمكن أن تكون للمستعار (المشبه به) لإدخال المستعار له (المشبه) فيه ؟

### 2. 3. 2. وضع الاستعارة المعرفي

لم تناقش هذه المسألة بالوضوح الذي نجده في كتب علم الأصول الإسلامية لاختلاف نتائج المعرفة، ومع ذلك، فإننا نعتقد أن هذه الإشكالية احتلت حيزا كبيرا في التفكير البلاغي الإسلامي، وخصوصا لدى المتأخرين. ويتجلى اهتمامهم في عدة مظاهر، منها : المفاهيم المستعملة مثل : الإثبات، والمثبت، والتأكيد والتشديد، والاستدلال بالأعْرَف على الأخفى، وفي هذا السياق تدخل مسألة امتعارة اسم المعقول للمحسوس، وقضية الفرق بين التشبيه والاستعارة.

في معرض حديث فخر الدين الرازي عن الوضع المعرفي للاستعارة بالمقارنة مع الوضع المعرفي للتشبيه، يقول : «وأما إذا قلت : «رأيتُ أسدا»، فقولك : «رأيت أسدا» مقدمة مشكوك فيها، ولكن المقدمة الثانية ـ وهي أن الأسد قوي شجاع ـ يقينية، وظاهر أن الشك مهما كان أقل في المقدمات المنتجة كانت الدعوى من القبول أقرب..».[18]

17) م. ذ. ر، ص 370.

18) فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز، ص 274.

بناء الشك على اليقين، واللاّ معروف على المعروف في ميدان الاستعارة مثلما في مجال القياس شيء ضروري - فيما يبدو - لإنتاج هذه الآلية. ونعتقد أن هذا الإشكال مركزي يجب توضيحه حتى يتسنى إدراك أبعاده المختلفة.

**2. 3. 2. 1. لدى القدماء**

إن البلاغيين العرب لهم تفريعات في أنواع المشبه والمشبه به، فقد يكون كل منهما متحققا حسيا أو عقليا أو وهميا.

| الأمثلة | المشبه | المشبه به | وجه الشبه |
|---|---|---|---|
| الخد وردة . . . . . . . . . .<br>الريح امرأة عقيم . . . . . . . | محسوس<br>محسوس | محسوس<br>محسوس | حسي<br>عقلي |
| العلم حياة . . . . . . . . . .<br>الموت رقاد | معقول<br>معقول | معقول<br>معقول | عقلي<br>عقلي |
| الورد سعادة | محسوس | معقول | عقلي |
| المتكبر ماء | معقول | محسوس | عقلي |

بيد أننا إذا تجاوزنا هذه القمة المنطقية وجعلنا المفاهيم ذات المستوى القاعدي أكثر ارتباطا بالتجربة، فإننا نجد ما يؤكدها لدى البلاغيين العرب، يقول السكاكي : «إلحاق الأضعف **بالأقوى** على وجه التسوية بينهما».[19] ولكن ليس في هذا القول ما يجعل الموضوع الثاني أو المستعار منه هو الأقوى، كما أن القول التالي لا يفيد في تعيينه، وإنما يسير في الاتجاه نفسه : «إذا وجدت وصفا مشتركا بين ملزومين مختلفين في الحقيقة هو في أحدهما **أقوى** منه في الآخر - وأنت تريد إلحاق الأضعف **بالأقوى** على وجه التسوية بينهما - أن تدعي ملزوم الأضعف من جنس ملزوم الأقوى بإطلاق اسمه عليه».[20]

(19) السكاكي، الكتاب المذكور، ص 374.
(20) نفس ما ذكر.

التأويل الذي يمكن أن يعطى للأقوى في هذا السياق قد يكون هو المتجذر في التجربة الإنسانية، والأكثر معرفة مهما كانت الوسيلة التي حصلت بها المعرفة، سواء أكانت مستفادة من الحواس أو بالعقل أو عن طريق الفطرة. وقد تفطن فخر الدين الرازي إلى شيء من هذا، رغم ما في رأيه من اختزال. قال : «وأما القسم الرابع، وهو تشبيه المحسوس بالمعقول فهو غير جائز، لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إِلَيْهَا [...] وإذا كان المحسوس أصلا للمعقول فتشبيهه به يكون جعلا للفرع أصلا، والأصل فرعا، وهو غير جائز. ولذلك لو حاول المبالغة في وصف الشمس بالظهور والمسك بالطيب، فقال : الشمس كالحجة في الظهور، والمسك كخلق فلان في الطيب كان سخيفا من القول».[21]

اختزالية فخر الدين الرازي سرعان ما تكشفت له حدودها، إذ وجد في الشعر العربي كثيرا من الأمثلة التي جاء فيها تشبيه المحسوس بالمعقول، وبدلا من أن يُعِيدَ التفكير في منطلقه الحسي التجريبي صار يعتذر عما فعله الشعراء.

بناء على إلحاق الأضعف بالأقوى بكيفية إجمالية، وتجنبا للتعقيد وكثرة التقسيم، فإننا سنرد أية استعارة - مهما كان النوع الذي منحه البلاغيون العرب القدامى لها - إلى موضوع أول وموضوع ثان، وشفيعنا في هذا الصنيع انتقاد البلاغيين القدماء لأنفسهم، وتراجعهم أحيانا عن تقسيماتهم، يقول السكاكي : «وقد ظهر أن الاستعارة بالكناية لا تنفك عن الاستعارة التخييلية».[22] كما أن التفتازاني يرى إبعاد الاستعارة **التبعية** لكثرة الإجراء والاستغناء عن أنواع الخلاف، يقول : «ولكن تفسير الاستعارة بالكناية بما ذكره المصنف شيء لا مستند له في كلام السلف ولا هو مبني على مناسبة لغوية».[23] كما أنه اعترض على تفسير التخييلية لأن فيه تعسفا «أي أخذ على غير طريق لما فيه من كثرة الاعتبارات التي لا يدل عليها دليل ولا تمس إليها حاجة».[24] ووصف التخريجات المتمحلة بالكلمات الواهية أو بالتحكم.

البلاغيون المسلمون القدامى أنفسهم انتقدوا كثرة التقسيمات في الاستعارة التي ليست محكومة بمقاييس مضبوطة، والبلاغيون المحدثون يتوجه غالبهم إلى الأخذ بنظرية الاستعارة التفاعلية لعوامل معرفية ونفسية وتربوية.[25]

(21) فخر الدين الرازي، الكتاب المذكور، ص 190.
(22) السكاكي، الكتاب المذكور، ص 379.
(23) شروح التلخيص، ص 247، مطبعة السعادة، القاهرة، 1342 هـ.
(24) نفس ما ذكر أعلاه، ص 259.
(25) Georgio Prodi, « Material Basis of Signification, Semiotica 69-314 (1988), pp. 191-240.

لهذا، فإننا سنصوغ الاستعارات الواردة في الكتب البلاغية في شكل استعارات مفهومية أساسية تدخل تحتها تعابير استعارية.[26]

**العمر سفر :**[27]

□ الصبا رحلة.

□ الشيخوخة استقرار.

**الإنسان كون :**[28]

□ الحال إنسان.

□ الإنسان فرس.

**الأحوال خليط :**[29]

□ البشارة إنذار.

□ الحليم سفيه.

لتوضيح العلاقة بين الموضوعين، وعمليتي التحليل والإسقاط نقدم ما يلي :

| □ **الصبا :** | □ **رحلة :** |
|---|---|
| [+ عدم التجربة]، [+ التقدم في العمر]. [ + اكتشاف المجهول]، [ + التوجه نحو هدف]. | [+ الزاد]، [+ الراحلة]. [ + قطع المراحل]، [ + اكتشاف المجهول]، [ + التوجه نحو هدف]. |

من خلال هذا، يظهر أن هناك أكثر من مقوم جامع بين الموضوعين، سواء أتحقق هذا الجمع بطريق المطابقة : [ + اكتشاف المجهول]، [ + التوجه نحو هدف]، أو عن طريق المماثلة : [ + قطع المراحل]، [ + التقدم في العمر]، أو بواسطة التشابه والتوسيع : [ + عدم التجربة]، [ + الزاد]، [ + الراحلة].

26) ستأتي الإشارة إلى هذين المفهومين في الفصل الثالث : 3. 2. 2.

27) صياغة للبيت الشعري المعروف :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله     وعرى أفراس الصبا ورواحله

28) صياغة لـ «نطقت الحال».

29) يجد القارئ هذين المثالين فيما يدعى بالاستعارة التهكمية.

□ الشيخوخة : [ + الضعف]، [ + التلبث]، [ + ضآلة الملاذ]

□ استقرار : [ + التلبث]، [ + ضيق المجال]، [ + عدم المغامرة]، [ + إحتمال ضآلة الحصول على منافع].

بين هذين الموضوعين أكثر من جامع : [ + التلبث]، [ + احتمال ضآلة الحصول على ملاذ].

□ الحال : [ + معلم ظاهر دال].

□ إنسان : [ + حي]، [ + ناطق]، [ + تظهر الأمارات على وجهه].

[ + الأمارة الدالة] جامعة بين الموضوعين.

□ الإنسان : [ + حيوان]، [ + عاقل]، [ + له عقل يكبحه].

□ فرس : [ + حيوان]، [ - عاقل] [ + يلجم لكبحه]

[ + الحيوانية]، [ + أداة الكبح] تؤلفان بين الموضوعين.

□ البشارة : [ + إعلام]، [ + سار]، [ + مؤمن]

□ إنذار : [ + إعلام]، [ + محزن]، [ + مخيف].

فالجامع [ + إعلام]، كما أن هناك مقومات متضادة.

□ الحليم : [ + التعقل]، [ + التأني]. [ + التثبت في الأمور].

□ سفيه :[30] [ + الطيش]، [ + الجهل]، [ + الحمق].

نكتفي بهذه الأمثلة، وليقس عليها ما لم يقل، ومن خلالها نستخلص بعض النتائج منها : أننا افترضنا أن الموضوع الثاني (المشبه به) هو المتحكم في الموضوع الأول (المشبه)، لأن مقوماته يجب أن تكون أعم وأشمل لضمان المماثلة والافتراق في آن واحد، وما ينقل أو يسقط

(30) من اراد ان يطلع على أصل ما تقدم من الأمثلة فليرجع إلى كتب البلاغة، وخصوصا باب الاستعارة.

قد يكون إيجابيا في حالة الاستعارة الوفاقية، وقد يكون سلبيا في حالة الاستعارة العنادية. أو التهكمية، وسنزيد هذا توضيحا فيما بعد.

2. 3. 2. 2. لدى المحدثين

قد يكون من التبسيط المخل تبنينا للنظرية التفاعلية،[31] وتأويل الأمثلة الاستعارية على ضوئها، في حين أن هناك نظريات قديمة ومعاصرة منافسة،[32] هناك النظرية التشبيهية، ونظرية الانزياح، ونظرية تصارع التسنين، والنظرية الجشطالتية والنظرية التركيبية، وكل من هذه النظريات ما زال حيا يرزق، وله أنصار يدافعون عنه ويبرهنون على فعالياته.[33]

على أننا إذا قمنا بقمة كبرى ـ نظرا لتداخلات هذه النظريات وتقاطعاتها ـ نرجعها إلى النظرية التشبيهية والنظرية التفاعلية؛ فالنظرية التشبيهية ذات الأسس الوضعية ترى في الاستعارة : «وسائل لغوية لوصف بعض المماثلات الموجودة قبليا بين شيئين في العالم»،[34] هذه الأسس الوضعية تمتد من الفلسفة اليونانية إلى عصرنا الحاضر، إذ هي قائمة على التحديد الأرسطي واستقراره في الشجرة الفورفورية المكونة من الجنس والأنواع والفصول والخواص والأعراض، وعلى مبدأ المساواة بين المحدَّدِ والمحدِّد، ومعززة بهيمنة الوضعية المنطقية التي جعلت للغة الحرفية السيطرة المطلقة واعتقدت أن المعلومات معطاة، وأن الاستعارة بمثابة انحراف طفيلي يصيب اللغة العادية واللغة العلمية، وبسبب هذا، فليس للاستعارة أهمية معرفية، وإنما لها دورها في الخطاب البلاغي الجمالي، وبهذه الوظيفة وحدها تكتسب شرعية وجودها. وأما لغة العلم فهي اللغة الحرفية الكفيلة بوصف الواقع كما هو، إذ يمكن الذهاب من اللغة إلى التعرف على العالم، ومن العالم إلى التعرف على اللغة.[35]

بيد أن النظريات التفاعلية، وإن شئنا بحسب «أورتوني» النظرية البنائية هي السائدة الآن لأسباب عديدة، منها التطورات العلمية المحضة، والتغيرات التي لحقت، تبعا لذلك

(31) Zolatan Kövecses, (1986), Metaphor of Anger, Pride and Love. A lexical Approach To The Structure of concepts. Amsterdam/Philadelphia.
(32) Albert N. Katz Allan Paivio and Mark Merschark (1985), « Poetic Comparison : Psychological Demention of Metaphoric Processing », Journal of Psycho libguistic research. V. 14 N° 4 pp. 365-379.
(33) انظر ما تقدم وخصوصا نهاية الفصل الأول.
(34) Zoltan Kövecses, op. cit. p. 9.
(35) Andrew Ortony (1986), Metaphor and Thought, U.S.A.

مناهج العلوم الإنسانية والأدبية، وبحسب هذه النظرية، «فإن الاستعارات وسائل مفهومية للإدراك، أو لخلق الواقع وليست مجرد وصف له».[36]

هذه النظرية قد بشر بها «ريتشاردز» ووضع أسها «ماكس بلاك»،[37] ثم تبعه آخرون «أورتوني»، و«لايكوف»، و«جونسون»[38] وآخرون. وتعني أن «اللغة والإدراك والمعرفة مترابطة بكيفية لا مفر منها»،[39] ومجموع هذه العناصر لا تحصل من عدم، وإنما تنبني على معرفة خلفية سابقة مشكلة في أطر - أي فهم الجديد أو خلقه باعتماد على القديم.

بناء على هذه الفرضية ينظر إلى المفهوم باعتباره نظاما قائما فعلا أو من بناء الخيال، لا باعتباره شيئا منعزلا. ولإدراك العلاقة بين المفهومين أو الطرفين أو الحدثين، أو الموضوعين يحلل الثاني منهما إلى مقوماته ليسقط بعض منها على الأول، بناء على عملية اختيار تبرز بعض المقدمات وتخفي أخرى، ولنأت بمثال «ماكس بلاك» لإدراك هذه الأقوال :

«الزواج لعب بدون ربح « Marriage is a Zero – sum game ».[40]

فلنبدأ بتحليل الموضوع الثاني الذي هو / لعب / :

المركب التضمني لـ / لعب / :

- □ اللعب مواجهة.
- □ بين اثنين.
- □ أحد اللاعبين لا يستطيع أن يكسب إلا على حساب الآخر.

المركب التضمني لـ / الزواج / :

- □ الزواج معركة مستديمة.
- □ بين متنافسين.
- □ مكافأة أحد المتنافسين لا تحصل إلا على حساب أحدهما.

(36) Zoltan Kövicses, op. cit. p. 9.

(37) Black, Max « about Metaphor », in Ortony, A (ed.), Metaphor and Thought. pp. 19-43.

(38) سنشير إلى بعض أعمالهما أثناء الدراسة وفي سرد المراجع.

(39) Ortony A., (1986), « Metaphor : A Multidimensionnal Problem » in Metaphor and Thought. pp. 1-16.

(40) Black, M. op.cit. pp.29-31.

وعلى وضوح نحت هذا المثال للبرهنة على النظرية، ورغم عدم فنيته وقربه من الحرفية، فإنه، ومن أجل هذه الأسباب ـ فيه كفاية للدلالة على معنى الإلحاق والتفاعل في إطار نظام. إن هذا التحليل الإطاري هو ما نماه «لايكوف» و«دجونسون»، و«زولطان كوفيتش». وسنتناوله بالتفصيل والمناقشة في فصل «التأطير».

ومع هذا، فإننا سنقدم أمثلة مستقاة من دراسة «كوفتش»[41] حول «استعارات الغضب والعجب والحب» ليتضح معنى التفاعل والإلحاق :

□ الغضب : □ الغضب ماء حار.
□ الغضب نار.
□ الغضب خصم.
□ العجب : □ العجب مائع في وعاء.
□ العجب شخص.
□ العجب رئيس.
□ الحب : □ الحب سفر.
□ الحب وحدة بين إثنين.
□ موضوع الحب طعام.

من خلال هذه الاستعارات نجد أن المفاهيم الثلاثة المجردة التي هي / الغضب / و / العجب /، و / الحب / أدخلت في مجالات محسوسات، أو ما أقل منها تجريدا، أي محاولة إدراك هذه المفاهيم المجردة في تعابير مفاهيم أخرى أكثر محسوسية وأقل تعقيدا، هذا الإدخال خلق علاقة بين هذه المفاهيم وما حمل عليها مما جعل الربط متيسرا بين مجالات مختلفة.

ان هذا النوع من الاستعارة هو ما يدعي بالاستعارة التأسيسية التي توجد الكيانات وتجعلها تتحرك في مجال وزمان، شأنها شأن الكائنات البشرية ذات السلطان والأهلية، كما يتجلى في مفاهيم الغضب والعجب والحب، «فالغضب يدرك ككيان، أو يخلق ليكون كيانا، والغضب والحب يدركان كأنهما يمتلكان مظهر (قدرة) مراقبة أو خلقا ليملكانه».[42]

هذه الوظيفة التأسيسية للاستعارة هي ما ركز عليه كثير من الباحثين فيها، فهي لا تؤسس المفاهيم العادية وحسب، وإنما النظرية أيضا، بدعوتها القارئ لاكتشاف المماثلات

(41) Zoltan Cövecses, op. cit. p. 5-10, 11-16.
(42) Idem, p. 116.

والمشابهات، بين مقومات الموضوع الثاني والموضوع الأول، (الإنسان حاسوب)، اعتمادا على تحليل ذي نهايات مفتوحة، مما يساعد على تقدم المعرفة الانسانية بمختلف أنواعها. وبهذا وقع نقل الاستعارة من «الخصائص الدلالية إلى العمليات المعرفية»، وصارت مجالا مفضلا لأبحاث علماء النفس المعرفي باختلاف تياراتهم واتجاهاتهم.[43]

**2. 4. 1. الاتجاهية**

تبين لنا من هذا، أن البلاغيين العرب والمسلمين يجمعون على إلحاق الأضعف بالأقوى، ولكنهم لم يبينوا طبيعة هذا الأقوى : أترجع قوته إلى حسيته وتجذره في التجربة الإنسانية أم تعود إلى ثراء الإمكانات التي يتيحها ؟ يظهر أن الشق الأول من السؤال هو الذي فرض نفسه على البلاغيين، ولذلك عدوا الحسي هو الأصل، والعقلي هو الفرع. لكنهم وجدوا نصوصا شعرية تناقض المبدأ الذي أصلوه، اعتمادا على فلسفة معرفية خاصة، فتمحلوا في التأويل. وهذا الإشكال نفسه طرحه البلاغيون المحدثون واقترحوا تخريجات له.[44]

**2. 4. 1. 1. العلاقة**

لإدراكه يتحتم على الباحث طرح العلاقة بين الطرفين وتلمس أنواعها، وقد يمكن أن ترجع إلى نوعين رئيسيين :

**علاقة ثنائية تناظرية**

في هذه الحالة يمكن للطرفين أن يتبادلا موقعهما، وتبادل الموقعين يحصل حينما يمتلك الموضوعان نفس المقومات، أو أن المتلفظ أراد أن يجعلهما متساويين. وهذا النوع من العلاقة انتبه إليه بعض البلاغيين، وأسماه بالتشابه، يقول السكاكي : «وأما إذا تساوى الطرفان المشبه والمشبه به من جهة التشبيه، فالأحسن ترك التشبيه إلى التشابه ليكون كل واحد من الطرفين مشبها ومشبها به تفاديا من ترجيح أحد المتساويين. ويظهر من هذا أن التشبيه إذا

(43) Boyd R. « Metaphor and Theory change : What is « Metaphor ». a Metaphor for ? in Ortony, A. (ed.), Metaphor and Thought, pp. 356-408.
Mac Cormac, Eart R : (1985). A Cognitive Theary of Metaphor.

(44) Zoltan Kövecses, op. cit. pp. 1717-120.

وقع في باب التشابه صح فيه العكس بخلافه فيما عداه [...] يصح أن يقال [...] بدا الصبح كغرة الفرس، وبدت غرة الفرس كالصبح».(45)

## علاقة ثنائية لا تناظرية

بيد أن التشبيه هو ترجيح أحد الطرفين على الآخر، ولكن المرجَّحَ غالبا أو دائما هو المشبه به، فإذا ما أريد ترجيح المشبه ليصير مشبها به، فإنه يقال : «كأن غرة الصباح وجه الخليفة» و«كأن الظلام يوم النوى»، وعلى هذا فقد يستنتج من أمثلة البلاغيين القدامى - رغم ترددهم - أن المشبه به ليس شرطه الوحيد المعرفة الحسية، فقد يضاف إليها و / أو ينوب عنها توهم قدرته على اشتمال غيره، واتسامه بالتمام والكمال.

إن وجهة النظر هذه تسير معها في تلاؤم أغلب آراء البلاغيين المحدثين، فالجشطالتيون يعرفون الإستعارة بأنها : «فهم نوع من الأشياء وتجربته في تعابير أشياء أخرى».(46) وتدقيقا لهذه الوجهة من النظر يمكن أن يفهم تفرقة بعض الباحثين بين نوعين من الاستعارات، أولهما الاستعارة ذات المستوى القاعدي « Basic Level Metaphors » المتأسسة على المفاهيم المرتبطة بكيفية مباشرة بالتجربة كاللمس والذوق والشم والرؤية والسماع، وثانيهما الاستعارة التأسيسية. وقد يرجح أن الاستعارات ذات المستوى القاعدي هي أساس أية عملية استعارية، والاستعارة التأسيسية - في مرحلة ثانية - تخلق علاقات جديدة، وهكذا، فإن : «الاستعارات التكوينية والاستعارات ذات المستوى القاعدي توجدان معا، ولكن لهما وظيفتان مختلفتان، فالاستعارات ذات المستوى القاعدي تسمح لنا بإدراك المفاهيم والقيام باستدلالات حول تلك المفاهيم المبنينة في مجالات مستعملين معرفتنا العادية، وأما الاستعارات التأسيسية فتقدم معظم وجود الغضب والعجب والحب».(47) بتعبير آخر، فإن المجالات الطبيعية تستعمل لفهم المجالات المجردة، وهذه قضية مجمع عليها، بيد أن ما لم يتفق عليه هو اتخاذ المجرد وسيلة لفهم الطبيعي والمحسوس، وقد قدم اقتراح يشوبه دور، وهو : أن الاعتماد على المجرد لإدراك المحسوس لا يصح ابتداء، ولكنه يصح في مرحلة ثانية. ذلك أنه عندما يفهم الأكثر تجريدية

(45) السكاكي، الكتاب المذكور، ص 337، وفخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز، ص 190.

(46) Lakoff, George and Mark, Johnson, (1980), Metaphor We liveby, University of Chicago Press. p. 96.

(47) Zoltan Kövecses, op. cit. p. 117.

بالأكثر طبيعية أو محسوسية يمكن أن يعلم الأكثر طبيعية بالأكثر تجريدية : فالمجال «أ» يستعمل لفهم المجال «ب»، ونتيجة لذلك، فإن «ب» يمكن أن تستعمل لإدراك «أ».[48] ويمكن التمثيل لكلا النوعين :

□ **الحالة الطبيعية :** الغضب عاصفة

□ **الحالة المجردة :** العاصفة إنسان

يزعم بعض الباحثين، بناء على هذه التفرقة، أن وظيفة النوع الأول الأساسية هي الفهم، وأن وظيفة النوع الثاني هي «الوظيفة البلاغية»، ولكننا - فيما نعتقد - نرى أن هذه التفرقة تبسيطية وضعية، فالتعابير اللغوية ليست بهذا النوع من الجمود، وإنما هي أداة تتحكم فيها مقصديات المتكلم ومقتضيات الأحوال التي يروج فيها كلامه، فقد يقصد أن يجعل المثال الأول المنتمي إلى الظواهر الطبيعية أغنى وأخصب من المثال الثاني المعبر عن قدرات الإنسان المحدودة، وقد يهدف إلى إثبات العكس وهو أن بعض الناس أعتى من الطبيعة كحال أمريكا وروسيا، إذ قد يضرون العالم أضعاف ما تلحقه الطبيعة به (القنبلة الذرية)، لأن لهم إمكانات تنمو باستمرار وتكشف عوالم لا عهد للإنسانية بها.

هذه الوجهة من النظر هي ما يأخذ به بعض الباحثين في نظرية العوالم الممكنة. ورغم ما يدور حول هذه النظرية من نقاش، فإنه لن يمنعنا من الإتيان بمثال يبين توليد الضعيف من القوي، والفقير من الغني، والواقع من الممكن :[49]

| بنية 1 | س | ص |
|---|---|---|
| ك 1 | + | − |
| ك 2 | + | + |

| بنية 2 | س | ص | ع |
|---|---|---|---|
| ل 1 | + | − | + |
| ل 2 | + | + | − |

(48) Idem, p. 118.
(49) Umberto Eco, (1985), Lector in Fabula, pp. 185-188. Grasset, Paris.
Robert J. Fogelin (1988), pp. 48-62.
Mac Cormac Earl R. (1985) pp. 144-149.

يرى المرء أنه ليس من الصعب توليد فردي (بنية) من (بنية)، إذ يكفي أن نسلب على كل واحد من فردي (بنية) خاصتي / ع /. كما يمكن تسوبة (بنية) بـ (بنية) بإضافة خاصتي / ع /. وإذا ما ركبنا بين البنيتين :

| بنية 2 | (+ بنية) 1 | ص | ص | ع |
|---|---|---|---|---|
| | ل 3 | + | – | – |
| | ل 4 | + | + | – |

إذا قمنا بتحويل لهذا المثال الثاني، فإننا نرى أن «ل» مطابقة لـ «ل» ومن ثمة، فإنهما متناظران. وأما العلاقة بين «بنية» و«بنية» فليست متناظرة إذا ما ترجمنا هذه البنيات إلى لغة الموضوع الذي نبحث فيه، وهو الاستعارة، فإن (البنية) هي المشبه، و(البنية) هي المشبه به. فقد يتساوى العالمان أو الطرفان من جميع الجهات، ولكن هذه المساواة قليلة جدا، وهذا شيء طبيعي إذ إن الطرفين إذا كانا متساويين من جميع الجهات، فإن عملية الاستعارة أو التشبيه تصير تحصيل حاصل. ولهذا، فإن علاقة اللاتناظر هي التي تهيمن في الاستعارة لأنها تجمع بين عالمين مختلفين عن طريق **المماثلة الجزئية**[50]: على أن يكون العالم الثاني أو الطرف الثاني أو المشبه به أخصب وأشمل وأعمق وأتم وأفضل وأعرف وأشهر...

## 2. 4. 2. 2. المماثلة

المماثلة الجزئية أو الكلية تقوم بدور كبير في الربط بين الأشياء والأشخاص والأحداث والوقائع والكلمات... ولذلك احتلت حيزا كبيرا في الدراسات الفلسفية والتنظيرية واللسانية المعاصرة،[51] ويكفينا في هذا السياق ضرب بعض الأمثلة ليتضح دور المماثلة ومنزلتها باعتبارها مفهوما إجرائيا.

(50) مفهوم المماثلة هو حجر الزاوية في نظرية الاستعارة وفي إكتساب المعرفة، ولذلك خص بدراسات وافية مؤيدة لهذا المفهوم أو داحضة له. أنظر :

(51) George A. Miller, « Images and Models, Similes and Metaphors », in Ortony, A. (ed.), Metaphor and Thought, pp. 202-250.

لعل من أهم الذين أبرزوا هذا المفهوم هو فتجنشتاين، وكان من وراء عمله هو التأكد من أن «نظريات معنى الكلمة أو تحديدها المتضمن للشروط الضرورية والكافية غير ملائمة لكثير من الكلمات»،[52] ولذلك اقترح مفهوم اللعب الذي تشترك في خصائصه جميع الألعاب. ولذلك، فهو يدعي أن لعبة تقتسم خصائص مع اللعبة اللاحقة، وأن اللعبة اللاحقة تقتسم بعض الخصائص (ليست بالضرورة نفس الخصائص) مع اللاّحقة، وهكذا دواليك، فمثلا : أ ب[1] جـ. ب جـ[2] د. جـ د[3] هـ. د هـ[4] و. هـ و[5] ز. و ز[6] ح. واضح من هذا أن كل مجموعة تشترك في بعض الخصائص مع الأخرى، ولكنها ليست مع الجميع، إذ لا اشترك فعليا بين المجموعة الأولى والرابعة، ولا بين الثانية والخامسة، ولا بين الثالثة والسادسة.[53] أي ليس هناك خاصة مشتركة بين تلك المجموعات.

يظهر أن الكاتبين حول هذا المفهوم والمناقشين له طعنوا فيه لعدم الاشتراك. يقول زولطان كوفيتش «الإدعاء أن هذه المعاني (معاني المترادفات) متماثلة إلى حد ما هو الادعاء أن هناك ـ على الأقل ـ مقوما مشتركا حاضرا في كل المعاني المذكورة أعلاه»،[54] ويعقب على هذا، بأن هذا الادعاء يمكن أن يرفض بسهولة لأنه ليس هناك مقوم مشترك بين المفردات التي أوردها. ولكن وجهة النظر هذه بقيت سجينة المقومات المعجمية المعطاة، ولم تفترض أن خلق مقومات سياقية ممكن، كما أنه لم يعر كبير اهتمام للكلمات الرابطة من مثل «واو» العطف وغيرها، أو العلاقات المعنوية التي تربط بين أجزاء النص كالتخصيص والتفصيل والتفسير؛ وجهة نظر «كوفيتش» معجمية مفردية وليست تركيبية نصية، وهذا ما يفهم من قوله : «أن فكرة المماثلة لا تلعب دورا مهما في اعتبار المعاني المختلفة للعجب. وبكل تأكيد، فإن هناك مماثلات بين بعض معاني الكلمات التي هي موجودة في القائمة، ولكن هذه المماثلات لا تتجاوز حالتين أو ثلاث حالات أو ـ ربما ـ أربع».[55]

غير أن هناك رأيا منافسا لهذا، وهو أن المماثلة : «بالمعنى العام يجب أن تعتبر بمثابة مفهوم سابق منطقيا على مفهوم التشابه العائلي» ..فهذا المفهوم يمكن أن يبنى «من مفهوم المماثلة وليس العكس».[56] لهذا، فإن مفهوم المماثلة شرط وجود لا للمفردات المعجمية

(52) Pulman, S.G., (1983), p. 19.
(53) Umberto Eco, (1985), p. 131.
(54) Zoltan Kövecses, op. cit. p. 122.
(55) Idem, p. 122.
(56) Pulman, S.G. op. cit. p. 129.
Apter, Mecheal, (1982), « Metaphor as Synergy » in David S. Miall (ed.), Metaphor: Problems and perspectives. Great Britain, pp. 55-70.

المنتمية إلى حقل دلالي وحيد، ولكنه شرط وجود للنص الحقيقي أيضا. فبين المفردات المتحاقلة تداخلات وتقاطعات كما بين أجزاء النص.

إن الرأي المعارض لمفهوم المماثلة الكلية أو الجزئية غير قائم على أساس مكين، ويكفي أن نوظف مفهوم التعدية[57] حتى يتهاوى. وتبيان ذلك أنه إذا كانت مجموعة : ا ب جـ تشترك مع مجموعة جـ د هـ وهذه تشترك مع مجموعة هـ و ز، فإن مجموعة ا ب جـ تشترك مع مجموعة هـ و ز بطريق **التعدية**، وبطبيعة الحال، فإن هذه المماثلة ليست معطاة ولكنها مبنية، وتبعا لذلك فإنها جزئية. خاصية التعدي، إذن، في هذا الإطار الموسع تتجاوز الكلمات المتحاقلة إلى ميدان التركيب البسيط أو المعقد ـ النص.

### 2. 4. 3. 3. التفارق

المماثلة الجزئية بالتعدية تضمن التحام النص واتساقه ولكنها ليست إلا آلية واحدة قسيمة لآلية أخرى، وهي التفارق Differentiation، فبها ينمو النص ويتناسل من البسيط إلى المعقد، الجملة الأولى من النص تتضمن الثانية وهكذا... وهذا ما حاولت **مقاربة الدلالية المفهومية** أن تبرهن عليه في عدة مسلمات :[58]

□ إحداها : س دِ س

□ ثانيتها : [س دِ ى      ى دِ س ـــ س = ى]

[س دِ ى      ى دِ ز ـــ س دِ ز].

إذا أردنا أن نسقط علاقة التناظر (المماثلة الكلية)، واللاتناظر (المماثلة الجزئية) على نقيضهما فإننا نحصل على النتيجة التالية :

#### 2. 4. 3. 3. 1. العلاقة الثنائية التناقضية

إذا كانت هناك قضيتان، إحداهما مثبتة والأخرى سالبة، فانهما لا يجتمعان، ولا يمكن لأي نص أن ينمو ويتسق باجتماعهما، لأنه يكون محتويا على التدافع بين هويتين. إذن لابد من مبدأ المحافظة على الهوية، ف «الحقيقة المنطقية» التي تكون إما «ب» وإما «ليس» ب،

(57) وظفنا هذا المفهوم لتجاوز مفهوم المماثلة الحاصلة بـ طرفين إلى المماثلة المتحكمة في النص.

(58) Maria Luis Dalla Chiara, « An Approach To Intensional Semantics », Synthese. V. 73. N° 3 December 1987. pp. 479.

شرط لإمكانية بناء العالم». كما أن «الحقائق الضرورية منطقيا ليست عناصر لتأثيث عالم ما، ولكنها شرط ضروري لبناء قالبه».[59]

### 2. 4. 3. 3. 2. العلاقة الثنائية اللاتناقضية

ولكن مبدأ الثالث المرفوع غالبا ما يخرق في تعابير اللغة الطبيعية وخصوصا في اللغة الشعرية والأدبية. ولذلك، فقد توجد هوية «ونقيضها»، على أن إحدى الهويتين تكون معطاة والأخرى تكون مبنية. وقد وضع مفهوم التفاعل أو شبه التضاد لحل هذا الإشكال « Synergy ».[60]

يقع الجمع، إذن، بما يمكن أن ندعوه المماثلة الإيجابية (الاستعارة الوفاقية) أي حينما تثبت مقومات ذاتية أو لوازم أو أعراض للموضوع الأول ليتوافق بعض التوافق مع الموضوع الثاني، ويحصل أيضا بما يمكن أن يوصف **بالمماثلة العنادية**، وهي التي يكون فيها : «وجه الشبه من نفس التضاد لاشتراك الضدين فيه أي في التضاد يكون كل منهما مضادا للآخر ثم ينزل التضاد منزلة التناسب بواسطة تمليح».[61] ويمكن إدخال ضمن هذا النوع عدة أشكال من الظواهر اللغوية كخطاب المرضى النفسانيين، والخطاب العجائبي، والأساطير.. والاستعاة، والدعابة، والسخرية، والاستهزاء، والألغاز.

المماثلة العنادية أو الاستعارة التهكمية أو شبه التضاد[62] « Synergy » صارت موضع اهتمام من قبل الباحثين سيمائيين ومناطقة وعلماء النفس. ولذلك فلنكتف بما يتعلق بموضوعنا وهو الاستعارة التهكمية التي يمكن تصنيفها إلى عدة أنواع بحسب درجة التضاد.

**الاستهزاء**

نقصد به أن المتضادين يكونان متعلقين بثابت طبيعي مثل : الحياة / المماة، كقول قائل : «أحييتك بقتلك»، فقد يكون الموجه إليه الخطاب مستبدا أو جبارا أو طاغية يضر الناس ولا ينفعهم، ولكنه حينما يقتل يستريحون من أفعاله الشنيعة، مماة الطاغية حياة لغيره : **القتل إحياء**، والحياة بممارسة الأعمال القبيحة قتل للناس : **الإحياء قتل**. إذن : **القتل إحياء والإحياء قتل.**

(59) Umberto Ico, (1985), p. 195.
(60) Apter. Micheal, op. cit. p. 55-56.
(61) شرح السعد، ص 173.
(62) هذا المفهوم يمكن أن ينوب عن النظريات الأخرى مثل : المعارضة اللغوية، والتضادية وغيرهما.

**السخرية**

نعني بها أن المتضادين لا يتعلقان بالثابت الطبيعي بكيفية مباشرة ولكن بأعمال مؤدية إلى الإخلال به، مثل أن يقال : أنجحتك بالترسيب، أو أمتعتك بالضرب المبرح. فالترسيب والإنجاح، والإمتاع والضرب متضادان، لكن الترسيب قد يكون مدعاة للنجاح كما أن الضرب المبرح قد يؤدي إلى المتعة، فالترسيب نجاح ورسوب في آن، والضرب المبرح متعة وإيذاء في الوقت نفسه.

**الدّعَابة**

هذا الصنف هو ما ركزت عليه دراسات القدماء، فسموه بإسم «التّمْليح» مثل : زوجتك شقراء سوداء. فهذه المرأة المتزوج بها «شقراء سوداء» في الوقت ذاته تعبيريا، ولكنها - واقعيـ - شقراء بالنظر إلى سلوكها مع زوجها وتعاملها مع أسرته وأصدقائه، وسوداء باعتبار لون بشرتها وجنسيتها وانتمائها العرقي.

إن هذه الأنواع من التضاد لها جانبان، أحدهما منصوص، وثانيهما مستنبط كما أن عملية إدراكها وتأويلها متعلقة بالمواقف المعرفية المتجلية في الأفعال الدالة على المعتقدات والآراء والإحساسات مثل «أعتقد» و«أرى»، و«أحس»... أي ما يطلق عليه إسم المقصدية أو المواقف القصدية، فما يراه متلق إستهزاء أو سخرية أو دعابة قد لا يعتقده غيره، كما أن قارئين قد لا يتفقان على نفس الإسناد للمفهوم، فما يظنه شخص سخرية يحسه آخر إستهزاء. إننا في عالم النسبية والذاتية والإمكان ولسنا في مجال الإطلاق والموضوعية والواقع.

**2. 5. 1. التشعب**

ينمو النص عن طريق المماثلة والتفارق والتضاد، وتحت تحكم عمليتين متكاملتين هما : «البساطة البنيوية والتعقيد المنظم أو السكون والدينامية أو التوازن واللاتوازن أو الانفتاح والانغلاق أو الاستقرار والتكون التشكيلي»،[63] يتمظهر النص بهذه التقابلات المتكاملة التي هي عبارة عن تنظيم وفوضى أو تناقض.

التناقض أو المفارقة أساس نمو كل نص مهما كان، ولكن التناقض نوعان : سطحي ناتج عن المداخل، وعميق صادر عن القاعدة التناقضية، و«تفاعل محوري الكناية والاستعارة

(63) Floyd Merrell, (1985), p. 9.
René Thom, (1977), Stabilité Structurelle et Morphogenèse. Inter Edition, Paris.
Claude Gandelman (1988), « The Semiotic Square as a Catastrophe ». Semiotica 70-1/2 pp. 79-89.

ناتج عن التناقضات التحتية (Paradoxes)، والتقاطعات المتتالية تصبح متجذرة في تناقضات تحتية جديدة».[64]

إن هذه الأقوال لا تعدو أن تقرر أساسا وجوديا للتخاطب اللغوي يدرسه التداوليون، وأصحاب نظرية العمل، والسيميائيون، وبعض النظريات العلمية مثل نظرية الكوارث. ومهما اختلفت التعابير فالمقصود واحد، إذ ليس هناك كبير فرق بين الصنافة التأسيسية Semiotic square، وبين التشعب bifurcation or Cusp، فالتضاد contrary : جميل / قبيح؛ قوي / ضعيف؛ كبير / صغير... ليس إلا التشعب الأولي « Cusp »، وشبه التضاد « Subcontrary » : لا جميل / لا قبيح، لا قوي / لا ضعيف، لا كبير / لا صغير، قد يطابق التشعب الفراشي « Butterfly» الذي هو مكون من ثلاثة عناصر.[65]

كل نواة لإنتاج خطاب تنمو عن **فلقها** إلى فرعين أو ثلاثة أو أكثر... ومع هذا التشعب فإن النص غالبا ما يبقى فيه خيط رابط بين أجزائه، إذ السيرورة التأويلية ليست إلا تعقيدا للنواة وتفصيلا لمجملها وتوضيحا لها مما يضمن مدار حديث وحيد : أي أن تلك التشعبات ليست إلا أغصانا لشجرة وحيدة. ينمو النص، إذن، بإبعاد التشعبات المحتملة التي تناقض مدار الحديث « Topic »، وبتنمية التشعبات التي لا تناقضه، ولكن تضاده أو تتداخل معه.

الاستعارة تقوم بدور أساسي في عملية التشعيب والتجميع في ان واحد : المماثلة والتفارق، ولذلك نجد علاقة وثيقة بينها وبين ما يدعى بنظرية العوالم الممكنة التي تقوم على احتمال الانفصال، وعلى مفهوم الادخال أو الالحاق : إلحاق ذات بذات أو بنية ببنية. ولكن بعض الباحثين يعتقد أن تطبيق هذه النظرية في مجال الاستعارة فيه تمحل وبعد، يقول : «يظهر لنا من غير الحكمة أن ننخرط في تحليل الاستعارة ضمن مفاهيم Terms العوالم الممكنة، فالاستعارة لا تنتج أفراد عالم بديل، فهي تسهم بكل بساطة في إغناء معرفتنا بأفراد عالم مرجعي وحيد».[66] إن هذا القول صحيح إذا ما انطلقنا من البديلية Alternativité، ومن المحافظة على مبدأ الهوية بدفع التناقض، ولكن البديلية والهوية لا تطلبان إلا في الأشياء والذوات المحسوسة مثل تشعب طريقتين إذ لا يمكن أن يسار فيهما معا في آن واحد، ومثل أن يكون الشخص نفسه موجودا معدوما في مكان واحد وفي زمان واحد. لكن الحدود بين

(64) Idem p. 162

(65) هناك دراسات كثيرة في هذه النظرية، ونكتفي بالإشارة إلى :

(66) Umberto Eco, (1985), p. 200.

الأشياء ليست بهذا الوضوح وتلك الدقة في تعابير اللغة الطبيعية، لذلك كانت الاستعارة وكان التضاد Synergy وكان عدم الاستقرار التعبيري Metastable. فإذا كان التشعب بمعناه الحاد عند منظري العوالم الممكنة هو : «حالة أشياء معبر عنها بمجموعة قضايا، وكل قضية منها إما أن تعبر عن «ب» وإما عن ليس «ب»»[67] فان شبه التضاد يعني تجريب «أ» كـ «ب» وليس «ب» في الوقت نفسه. فالاستعارة، إذن، وخصوصا الإبتداعية منها، تصح أن تتناول ضمن نظرية العوالم الممكنة، بل يمكن الزعم أن الانفصال الاحتمالي ليس إلا مظهرا من مظاهر الاستعارة.

يتبين مما سبق أن مفهوم التشعب (الاستعارة) الناتج عن دينامية التناقض العميقة هي أساس نمو النص، ولكن التشعب لا يكون فوضويا، وإنما ينظم عن طريق الترابط الناتج عن الرسوم والحمول : (الكناية والمجاز المرسل)؛ فالترابط والتشعب عمليتان متكاملتان وشاملتان «لكل الأنظمة التعبيرية الرمزية والعمليات المعرفية التي هي غير لسانية»[68] ومع هذا التكامل والتشابك الذي تلح عليه نظرية المجموعات المتداخلة، ومع عدم الارتياح إلى التقسيمات الموحية بالانفصال المطلق بين الوقائع المفهومية، فإنه لا مانع من إقامة تراتبية بين العمليتين، فالترابط بمعناه الخاص (الكناية والمجاز المرسل) ليس إلا **رسما** بمقوم أو مقومات، أو بعلة من العلل الأربع المعروفة التي قد يبرز منها ما يتعلق بالإدراك المباشر الحسي مثل الأشكال والألوان والروائح والمذوقات والملموسات، وقد يراعى فيها ما تؤديه من وظائف في الحياة الاجتماعية، وتفاعل الناس معها، وقد تعكس سلوك الناس وأسبابه ونتائجه... إن الترابط في هذه المرحلة هو تصور للمفرد باعتباره مرحلة أولى في سبيل إدراك التركيب.

أما التشعب (الاستعارة) فهو **رسم** أيضا بتشعيبه وفلقه، وبتوليفه بين مفردين أو عالمين أو مجالين مختلفين... إلا أنه رسم ثان بالأعراض المؤلفة والموافقة... أو المخالفة المعاندة.

إن كلا من الآليتين (الترابط والتشعب) تَنْتَقي بعض الأعراض وتبرزها لأن لها «مزيد اختصاص بالمعنى»، وتجمّدُ بعض الصفات الأخرى، وتجعل الإنتقال من الأعراض إلى الموصوف أمرا ممكنا في حالة الرسم التام أو الناقص، وتيسر العبور من الموصوف إلى مقوماته في حالة التحديد الجامع المانع، ودون هذا المطمح صعوبات شتى...

## 2. 6. خاتمة وآفاق

حاولنا فيما مضى أن نبين ما يلي :

□ أن الآلات التي تحكم عملية التقييس، سواء أكان تشريعيا كما يتجلى في أصول

(67) Idem, p. 168.

(68) Floyd Merrell, (1985), p. 162.

الفقه أم كان لغويا كما ينعكس فى الاستعارة، هي نفسها، بل يمكن الزعم أن الدراسات الاستعارية القديمة تحكمت فيها خلفيات قياس التمثيل الأصولي بأركانه وأقسامه وشروطه الدقيقة... فإذا ما الأصوليون اختلفوا في شرعية قياس التمثيل ووضعه المعرفي، فإن الخلاف نال الاستعارة أيضا، وإن بدرجة أقل حدة لأن النصوص الأدبية لا يترتب عنها حكم شرعي عملي يؤدي إلى الثواب أو إلى العقاب بكيفية مباشرة.

□أن النظرية التفاعلية جعلتنا نتخلص من كثرة التقسيمات التي انتقدها البلاغيون العرب أنفسهم من مثل : الاستعارة التصريحية والتبعية والكنائية والتخييلية... إذ يمكن صياغة أي تعبير استعاري في استعارة مفهومية مؤلفة من موضوع أول وموضوع ثان، كما أن مفهوم التفاعل يجعلنا نتجاوز الاستعارات الجملية إلى دراستها في النص، بناء على توظيف مفاهيم المماثلة الجزئية والتعدية وشبه التضاد...

□ أن طرح الاستعارة بهذا المنظور قد يسهم إلى حد كبير في تنقيح أصول الفقه من كثير من الآراء التي توجد في كتبه، وفي تبيان أسبابها، ويبين بجلاء دور عملية المقايسة في تحصيل المعرفة ونقل الخبرات على عكس ما يراه بعض الباحثين والمفكرين، ومع ذلك، فإن التفرقة واجبة فيما يدعي «التفكير بالمشابهة»[69] الذي يؤدي إلى ربط صلات واهية بين طرفين مما يؤدى إلى «معرفة» قائمة على غير أساس. وقد تكفل بتبيان هذا النوع من «العلم» كثير من الباحثين.

□ أن مفاهيم الترابط والتشعب والرم تنحي نهائيا أقسام الكناية والمجاز المرسل، وأنواع الاستعارة الترشيحية والمجردة والمطلقة... إذ ليس هناك إلا دينامية تناقضية وراء النص.

□ قد أسهمت عدة نظريات كالكارثية « Catastrophic Theory » بمفاهيم التشعب والذكاء الاصطناعي بـ : الأطر Frame Theory، والمدونات Stript... Bifurcation Cuspand وبصراع الخطاطات Schema Conflict، والدلائلية بالتشاكل Isotepy Isotopie، في الكشف عن آليات النص، وقد يمكن اعتبار الكارثية التعبير الرياضي والفيزيائي والبيولوجي عن سر الوجود اللغوي وتشعباته، كما أن علم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي يسيران في نفس الاتجاه مع محاولة الكشف عن آليات الإنتاج والتأويل. وأما التشاكل فيحاول تقديم أدوات منهاجية وإجرائية لقراءة النص وتأويله.

(69) Resemblance Thimking. See Thagard. P. (1988). pp. 162-173..



## الفصـــل الثالـــث

# 3. التأطيـــر

### الإشكـــال

أدرك كثير من الباحثين تأثير الإبستمولوجية الأرسطية في تحليل الاستعارة عبر العصور المختلفة، ومع هذا الإحساس بهيمنة التصورات الأرسطية القديمة والرغبة في تجاوزها باقتراح مفاهيم ونظريات جديدة من مثل المقومات السياقية والمعرفة الموسوعية ومعرفة الخبراء والحس المشترك والتشاكل والتشابه العائلي فإن روح منهاجية التحديد أو التحليل بالمقومات بقيت سارية في كل المقاربات حتى فيما يمكن أن يدعى بالثورية الجذرية وبالتجاوز المطلق، لأن هذه المنهاجية قد تكون مستمدة من الفطرة البشرية التي جوهرها التحليل والإستدلال والتماس علائق المماثلة والمشابهة بين أشياء الكون وعناصره للهيمنة عليه واستغلاله والعيش فيه.

إذا لم يدرك القارئ هذا المنطلق فقد تعتريه الحيرة من البون الشاسع بين أقوال المجددين وأفعالهم، إذ يرى أن تحليل الاستعارة لدى شيخهم «ماكس بلاك» قائم على أساس منهاجية التحديد بطريقة ملتوية. فقد فكك كلا من طرفي الاستعارة إلى مقومات ثم التمس نوع العلاقة التي تربط بينهما كما يفعل التحليل التقليدي. ولذلك لا يستغرب القارئ إذا وجد أحد الباحثين يصف «ماكس بلاك» وآخرين من المختصين في الاستعارة بـ : «الأرسطيين الجدد»،[1] كما أنه لن يعجب إذا وجد كثيرا من مقاربات الذكاء الإصطناعي تهيمن عليها الروح المنهاجية نفسها، على أن هناك فروقا جوهرية بين بعض المقاربات الثورية وبين الأرسطية القديمة والجديدة تتجلى في اختلاف المنطلقات والأهداف؛

(1) Gumbel, Liselotte, (1984), pp. 213-259.

فالأرسطيون ينطلقون من المفرد لتحديده بمقوماته القبلية المعطاة، والثوريون يمارسون تحليل المفهوم في إطار شمولي (جشتالتي) مُرَاعِينَ دور المفهوم وتعالقه بما قبله وبما بعده.

### 3. 1. التحليل بالاطار

إن ما سيتلو سيبين نقط الاشتراك والاختلاف في حينها ولكنه سيهتم أساسا ببعض المقاربات التي تستقي منهاجياتها وتؤلف نظرياتها مما جد في ميدان الأبحاث الفلسفية والنفسانية والعلمية ـ أي مما يدعى الآن بـ «العلم المعرفي» « Cognitive Science ». وقد تعمدنا عرض بعض آرائها الأساسية قبل المرور إلى صلب الموضوع ليتسنى للقارئ التعرف على الأبعاد الإبستمولوجية والمنهاجية والنظرية لبعض الأعمال الأساسية كمنجزات «لايكوف»[2] و«دجونسون» و«كوفيتش» وغيرهم، وخصوصا القارئ البعيد عن مصادر العلم الجديدة ومناخها لأنه ـ في هذه الحال ـ مهما أوتي من النباهة وحدة الذكاء تفوته أسرار تركيب تلك المؤلفات والنظريات : كيف يمكن له أن يدرك النظرية التفتيتية ونظرية المسلمات المعنوية ونظرية الشبكات الدلالية..؟ وكيف سيلم بمقصود الأمثلة « Prototypes » والقوالب « Stereotypes » والأطر « Frames » والمدونات « Scripts » والسيناريهات « Scenarios » والمخططات « Schemas » والنموذج الذهني « Mental Model »..؟ إنه مزيج غريب من المنهاجية الأرسطية والأفلاطونية والجشتالية استثمر كله ليطبق في الدراسات الاستعارية الرائجة الآن.

العلم المعرفي هو وعاء لهذا كله، وهو يسعى إلى إعادة النظر في مكونات الإنسان ووضعه وعلاقته بالطبيعة وبغيره من الناس، إنه علم ذو أبعاد عميقة ومرام شاسعة تتجلى في الأسئلة التي يطرحها والموضوعات التي يعالجها، وفي العلوم والمعارف الأخرى التي يتقاطع معها ويتداخل، فهو يطرح الأسئلة التالية : كيف يتعلم الناس معاني الكلمات والمقولات الطبيعية ؟ كيف يَحْصُلُ التواصل مع الآخر ؟ كيف يدرك المعنى ؟ ما المعنى ؟ كيف يبدع الناس ؟[3] وهو يعالج موضوعات شاسعة ومتنوعة مثل تحليل الخطاب وحل المشكل واكتساب اللغة وتكوين المفهوم والتمثيل الذهني وعلم الدلالة والتكوين المعرفي والمعالجات البصرية...[4] وهذه الموضوعات تعالجها فروع أخرى من المعرفة كالفلسفة وعلم النفس

(2) Umberto Eco (1988). Meaning and Mental reprsentations. Indiana University-Press.

(3) Umberto Eco et al. (1988). p. 10.

(4) Daniel Schutzer. (1987). Artificial Antelligence-An Application Oriented Approach. (VNR) New York.

المعرفي والذكاء الاصطناعي، فهو يلتقي مع الفلسفة في إثارة مشكل المعرفة الإنسانية من حيث فطريتها أو اكتسابيتها أو من حيث هي مزيج منهما، وفي التساؤل عن كيفية اشتغال الذهن البشري، وبعض هذه القضايا هي ما يخوض فيه المختصون في علم النفس المعرفي إذا اعتنوا بمسألة كيفية تفكير الكائنات الإنسانية.(5) كما أن الذكاء الإصطناعي يحاول «أن يفهم كيفية تفكير الكائنات الإنسانية عن طريق دراسة سلوك مخططات الآلة وبرامجها التي يفترضها النموذج الحالي ويخمنها حول بعض مظاهر اشتغال المعرفة الإنسانية».(6) وفي هذا السياق تفهم الاستعارات التالية : الإنسان حاسوب، والدماغ حاسوب، والذهن برنامج، والمعرفة تحسيب، والحاسوب يفكر،(7) لأن الحاسوب صار «ينجز الأعمال التي ينجزها الإنسان باستعمال ذكائه».(8)

إن ما ينبغي التنبيه إليه هو أن المزج بين هذه المجالات العلمية المختلفة وجمعها تحت شعار «العلم المعرفي» يسعى إلى إدراك كنه كيفية اشتغال الدماغ والفكر البشريين، وإلى التعرف على الآليات التي تسعف الإنسان لإنتاج المعرفة والتصرف في أهم أداة لها وهي اللغة الطبيعية، ولذلك انكب هؤلاء العلماء بمختلف تخصصاتهم على صياغة نظرية أو نظريات ملائمة لمعالجة اللغة الطبيعية من حيث مفرداتها وتراكيبها وعلائقها ومجال تداولها ومنطوقها ومفهومها والمصرح به والمستنبط...(9)

بعد هذه النظرة العامة على موضوع «العلم المعرفي» ومراميه فلنأخذ بعض المفاهيم المتصلة بحل مشكلنا لنؤكد من خلالها ما أشرنا إليه من خلفيات إبستمولوجية وغايات نظرية وتطبيقية. وهذه المفاهيم هي : الشبكة الدلالية والإطار والمدونة والحوارات والنماذج الذهنية.

### 3. 1. 1. الشبكة الدلالية : « Semantic Network »

هذا التحليل منتشر وشائع في كتب تحليل المعنى والذكاء الاصطناعي إذ لا يخلو كتاب منها في تخصيص فقرة له. ولنأت بمثالين شهيرين بين الدارسين لتبيان آلياته التحليلية

(5) Idem, p. 3.
(6) Idem, p. 1.
(7) Mac Cormac Eart R., (1985), pp. 9-22.
(8) Daniel Schutzer, op. cit. p. 1.
(9) Terry Myers, (1986). Reasoning and Discourse Processes. Academic Press. London.

9) وقد ذكرنا هذا الكتاب على سبيل التمثيل ليس غير، فهناك العديد من الكتب تتناول هذه القضايا.

ثم بعد ذلك نعقب عليهما :

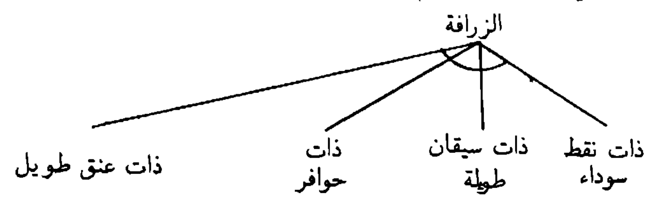
والمثال الأول هو :[10]

امرأة : الجنس الأعلى : إنسان

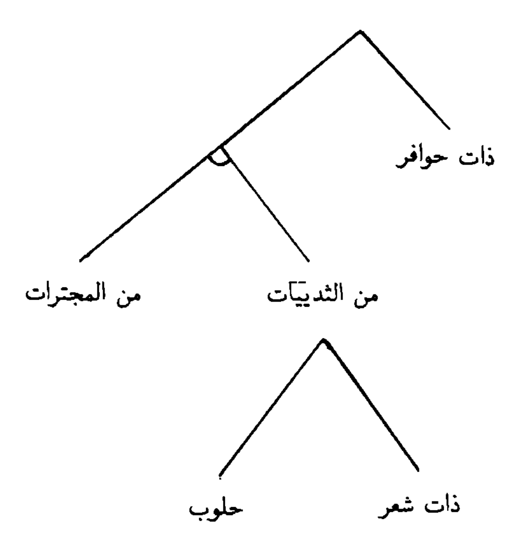
الجنس : أنثى

السن : بالغة.

وإذا ما وضع هذا التحليل في شبكة فإنه يصير على الشكل التالي :




والمثال الثاني هو تحليل مفهوم «الزرافة» :[11]




(10) Philip N. Johnson – Laird, « How is Meaning mentally Represented » in Umberto Eco et al, (eds), Meaning and Mental Representations. pp. 99-118.

(11) Daniel Schutzer, (1987), p. 33.

وبعض هذه المقومات نجدها في كتاب «التحسيب وفلسفة العلم»، إذ يذكر منها : عنق طويل، والتنقيط وأربع سيقان.[12]

من خلال تحليل هذين المثالين تتبين لنا الخلفية المنهاجية والإبستمولوجية التي تتحكم فيه، إنها الأرسطية وجذر وجذوع الشجرة الفورفورية، فمن السهولة صياغة «التحديدين» على الشكل التالي :

أمرأة : [ + إنسان]، [ + أنثى]، [ + بالغة].
الزرافة : [ + ذات نقط سوداء]، [ + ذات سيقان طويلة]،
[ + ذات حوافر]، [ + ذات عنق طويل]،
[ + من الثدييات]، [ + ذات شعر]، [ + حلوب]،
[ + من المجترات].

ومن خلال هذه الصياغة يتبين لنا أن آليات التحديد نفسها هي التي تحكمت فيها : الجنس والنوع الذي يصبح جنسا... والتصمن، وتعقيم بعض العقد وتفريع أخرى. ولكننا إذا تجاوزنا هذه المشابهات فإننا نجد المنطلقات الإبستمولوجية والغايات مختلفة، فذكر التحليل الشبكي للمقومات لا يهدف إلى التحديد الجامع المانع وإنما يقصد إلى خلق أفق انتظار حول المثال « Prototype » المحلل، لأن مثل ذلك التحديد غير الميسر، كما أنه يوظف في غايات تعليمية، فعندما يذكر مفهوم قاعدي[13] مشترك بين عامة الناس يمكن لسامعه أن يتصوره بسهولة ويستدل به على ما أكثر منه تجريدا (سيارة الركوب العادية وسيارات السباق وأنواعها)، وعقده الدلالية تجميع لشذرات المعرفة ضمن مواضيع ومفاهيم وأوضاع (الكرسي وانتماؤه إلى الأثاث، واللعب والحرب والتنظير والبناء) وليس مجرد تحليل ذرّيٍّ لمفهوم منعزل، وهو وسيلة استدلالية لإثبات العلاقة بين جمل النص مما يؤدي إلى تنظيمه وملء فراغه.

إن هذه الوظيفة الأخيرة تجعل التساؤل عن علاقة هذا التحليل بالميدان الذي نبحث فيه، وهو الاستعارة، غير وارد، ومع ذلك فقد وضعه «مَاكْ كُورْمَكْ» وأجاب عنه مدعيا أن الاستعارة هي جمع بين عقدتين مختلفتين ليس بينهما علاقة رتبية أو تضمنية أو وراثية مثل

(12) Thagard P., (1988), pp. 68-70.
(13) Gearge Lakoff, « Cognitive Semantics » in Umberto Eco et al, (eds), Meaning and Mental Reprsentations, pp. 119-154 (133).

الجمع بين الحزن والغبار؛[14] ليس هناك ما يجمع بين الحزن والغبار إذا اعتبرت نظرية الشبكات الدلالية وضعية لا تتيح خلق مماثلات للجمع بين عقدتين أو مجالين مختلفين، ولكنه إذا احتكم إلى دور المفهوم في السياق اللغوي وفي السياق الثقافي فإن هناك أكثر من وشيجة تجمع بينهما : وجه مغبر ووجه حزين.

### 3. 1. 2. الإطار

وسيزداد هذا المفهوم وضوحا حينما يربط بمفهوم الإطار، وإدراكا لهذه العلاقة نعرف بالإطار وبمكوناته وبمدى إجرائيته. وقبل التعريف به نذكر أن هذا المفهوم حاز شهرة كبيرة وتداولا منتشرا في ميدان علم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي فخصصت له ملفات كاملة تحلله من جميع الجوانب،[15] كما أن أي كتاب يتحدث عن الذكاء الاصطناعي أو تحليل الخطاب لا يخلو منه. فعند النظر إلى ما كتبه «منسكي» وآخرون في تعريف هذا المفهوم يرى المرء إختلافا في الجزئيات واتفاقا في الجوهر، فهو تنظيم للمعرفة ضمن مواضيع مثالية، Prototypes وأحداث قالبية « Stereotypes » ملائمة لأوضاع خاصة. ومعنى هذا أن الذاكرة الإنسانية تحتوي على أنواع من المعارف المنظمة في شكل بنيات. وحينما يواجه الإنسان سلوكً أو حدثً أو يريد أن يقوم به أو يفعله فإنه يستمد من مخزون ذاكرته أحد أجزاء البنية لتأويل ما وقع أو لإنجاز ما يريد.

لقد وظف مفهوم الإطار في الذكاء الاصطناعي لفهم اللغة ومعالجتها لما تبين من قصور نظرية الشبكة الدلالية ونظرية منطق المحمولات،[16] ومع ذلك، فإنه يتبين أن هناك تماثلات كثير بين نظرية الشبكة الدلالية وبين مفهوم الإطار، ولإبراز هذه التماثلات نُحلل مفهوم الإطار إلى مكوناته، وأهمها : العقد والروابط والشغالون، فالمستوى الأعلى أو العقدة العليا تتولد عنها عقد صغرى لها نهايات ـ فضاءات فارغة « Slot ». ويمكن أن تملأ هذه الفضاءات ببعض البنيات أو التعابير تدعى المالئة « Filler ». كما أن بعضا من هذه المالئة قد يتشعب إلى عقد جديدة، على أن بعضا آخر قد يتوقف. وهكذا، فإن الإطار (العقدة العليا) قد

(14) Mac Cormac, Earl R., (1985), p. 131.
(15) Dieter Metzing (ed), (1977), Frame Conception and Text Inderstanding. Walter de Gruyter.
16) ولمزيد من التفاصيل ينظر :
Idem, p. 41

يتشعب إلى أطر فرعية (عقد فرعية) بعضها منجب وبعضهـا عقيم.[17] وبـالضرورة، فـإن هنـاك روابط « Links » من نوع خاص تشير إلى العلاقة الوثيقة بين الإطار الأم وبين الأطر الفرعيـة (العقد الفرعية). وضبطا لهذه العلائق صيغت مفاهيم عـديـدة من مثل : «من جنس كـذا AK – Akind of» أو «اختصـاص كـذا ISA – Specialisation of». وتوضيـح هـذا فيمـا يلي : قـد يجـد الإنسـان إطارا فرعيا ويريد أن يربطه بإطار عام، وليكن الإطار الفرعي هو «كرسي»، فالكرسي ينتمي إلى جنس أثاث المنزل لأنه يحتوي على مقومات ما يجمعه بالأثاث : «فـإذا مـا بحثنـا عن معلومات في الكرسي ولم نجدها في إطاره، فـإننـا نبحث عنهـا في إطـار الأثـاث (...) إن الكرسي يرث خصـائص وصفـات موجودة في إطـار الأثـاث»،[18] كمـا أنـه يجب أن تعزى كل الصفات والخصـائص إلى الكرسي الـذي من شـأنـه أن يمتلكهـا إلى أن يثبتِ العكس، وعمليـة العزو هذه هي ما يدعى الاستدلال بالغيـاب[19] « Inference by Default ». كمـا أن آليـة أخرى تقوم بدور بيِّنٍ في الربط بين الأطر (العقد) وتنشيطها حينما تدعو الحاجـة، وهـذه الآليـة هي الشغالون « Demons ». وتنطلق عملية الربط والتنشيط بـ «إذا ما كان كذا فإنـه يكون كـذا أو يحتاج إلى كذا أو يضاف كذا أو ينقل كذا...»[20]

مثال علاقة الكرسي بالأثاث تطرح مسألة علاقة الإطار العـام المجرد « Type » بـالإطـار المتحقق أو الواقعي « Token ». ولإدراك هذه العلاقة نسوق المثال التالي :

إطار ← دار (جنس (قيمة (بناء)))
فضاء ← (مطبخ (قيمة (معاصر)))
فضاء ← (بيت النوم (قيمة (معاصر)))
فضاء ← (بيت الاستقبال (قيمة (تقليدي))).

من خلال هذا التمثيل يظهر أن هناك إطارا أمّاً هو الـدار وهنـاك ثلاث فضـاءات ملئت بعناصر مقومة وهي : «مطبخ» و«بيت النوم» و«بيت الاستقبـال»، ويمكن أن يشعب بعض هـذه الفضاءات أو كلها لتملأ بدورها. كما يمكن أن يضاف بعض الشغالين لتنشيط بعض الأطر كأن

(17) P. Hayes « The Logic of Frame » in Dieter Metzing (ed), (1977), pp. 46-61.
M. Miniski, « a Frame Work for Representing Knowledge » in dieter Metzing (ed), 1977, pp. 1-26.
(18) Daniel Schutzer (1987), p. 28.
(19) يمكن أن نصوغها بعبارة : «الإقرار بالوجود حتى يثبت العكس»، نقر بوجود رجلين وشفتين وعينين للإنسان.
(20) Daniel Schutzer (1987), p. 29.

يقال : إذا كانت الدار مغربية فإنها تحتوي على بيت استقبال تقليدي، وإذا كانت الأسرة كبيرة فقد يحتاج إلى توسيع الدار. والإطار الممثل به نموذج Type يرث جميع خصائص وصفات الدار النموذجية عن طريق الاستدلال بالغياب حتى يثبت العكس التحري والتقصي.

يتبين من هذا أن هناك تشابها بين مفهوم الإطار ومقاربات أخرى رائجة في سوق المعالجة اللغوية وهي التحليل بالمقومات ومنطق المحمولات والشبكات الدلالية... وإذا أقررنا بهذا التشابه فإننا نتساءل عن الخلاف بينه وبين المقاربات المذكورة وخصوصا إذا ادعي أن مفهوم الإطار جاء بديلا عنها. إن ما يمكن قوله هو أن هذا المفهوم جاء موضحا لما ورد ضمنيا في تحليل الشبكات الدلالية كإبراز دور الاستدلال والتنبؤ والروابط بين أجزاء البنية مما يسهل عمليات إنتاج النص وتأويله، فكل هذه الآليات ذات فعاليات كبرى في هذا المجال، وستزداد هذه الفعاليات إذا ما ماثلنا ترابط عقد الإطار بربط الاستعارة بين المجلات المختلفة.

### 3. 1. 3. المدونة

هذه التشابهات والإختلافات هي ما يجده القارئ في المفهوم المدعو بالمدونة « Script ». فهل هذا المفهوم ليس إلا تسمية جديدة لمفهوم الإطار ؟ إن كثيرا من الدراسات توحي بتطابق المفهومين. ولهذا نجد بعض المؤلفين يجمعون الإطار والمدونة في تعريف واحد : «الأطر والمدونات تنظم المعرفة ضمن مواضيع...[21]» ويجعلون مكوناتها واحدة، على أن بعض المؤلفين الآخرين يريد أن يمايز بينهما كما يدل على ذلك العنوان التالي : «من الأطر إلى المدونات»، وفي نظر هؤلاء أن أسس الممايزة تكمن في أن «نظام الإطار القاعدي ليس له معرفة بتتابع الأحداث، وليس له معرفة بحوافز المشاركين، وليس له معرفة بتسبيب الأحداث، وفوق ذلك ليس له معرفة بتضمنات الأحداث».[22]

نعتقد أن الفصل بين الرأيين يتطلب إيراد أمثلة منهما للتمعن فيها واستخراج الفروق منها : وهذه أمثلة المدونة :

(21) Daniel Schutzer, op. cit., p. 27.
(22) H.M. Noble, (1988), Natural Language Processing. Black Well Scientific Publications, Great Britain.

مدونة المحاضرة :

المشاركون : الطلبة، المحاضرة.
العناصر : الكرسي، الدفتر، القلم، المحفظة، قاعة المحاضرة، الكلية.
وقت إلقاء المحاضرة : أوقات اشتغال الكلية.
الموقع : موقع الكلية

تتابع الأحداث :

أولا : مدونة دخول الطالب إلى قاعة المحاضرة (العنوان).
ثم : مدونة إيجاد مكتب فارغ.
ثم : مدونة الجلوس على المكتب.
ثم : مدونة إخراج الدفتر.
ثم : مدونة دخول المحاضر إلى قاعة المحاضرة.
ثم : مدونة إلقاء المحاضرة.
ثم : مدونة تسجيل الطالب المحاضرة فقط (مفهوم أساسي).
ثم : مدونة الحوار بين المحاضر والطالب.
أخيرا : مدونة مغادرة قاعة المحاضرة.

وهذا مثال ثان شائع وشهير وهو مدونة «المطعم»، إذ يجده القارئ في كل الكتب المتعلقة بميدان الذكاء الإصطناعي مطيلة فيه أحيانا ومختصرة له أحيانا أخرى.[23] ويبين المطول منه مشاهد المطعم وفضاءاته وروابطه وشغاليه.

إطار المطعم التوليدي.[24]
إختصاص كذا : مؤسسة تجارية.

نماذج :
الأصناف (مطعم يخدم فيه الزبون نفسه، إجلس انتظار الجلوس).
القيمة المفقودة : انتظار الجلوس.

(23) Idem, pp. 30-31.
(24) Idem, p. 20.

إذا ما كان كذا فإنه يكون كذا : إذا ما كان الأكل معلبا في لَدِينةٍ فهو أكلة سريعة.
وإذا كان الإناء كبيرا فهو مقهى لخدمة النفس.
إذا ما كانت علامة إنتظار الجلوس أو علامة الحجز فإنه يجب الانتظار، وإذا كان عكس هذا فخذ مقعدك.

**الموقع :**

الصنف : العنوان.

إذا ما أردت الدخول إلى المطعم فأنت محتاج إلى النظر في ورقة الوجبة (النظر في ورقة الوجبة).

**الاسم :**

إذا ما أردت اختيار الأكل فأنت محتاج إلى النظر في ورقة الوجبة (النظر في ورقة الوجبة).

**نوع الطعام :**

الأصناف (باركر، صيني، أميريكي، أكلة بحرية).

القيمة المفقودة : أميريكي.

إذا ما حصل كذا عليك أن تفعل كذا (إذا لم تحصل على المبتغى، فابحث عن مطعم بديل).

**زمن الاشتغال :**

الصنف : وقت الاشتغال في اليوم.

القيمة المفقودة : يفتتح ليلا ما عدا الإثنين.

**شكل الأداء :**

الأصناف (نقد، ورقة الأداء، صك...)

**توالي الأحداث :**

القيمة المفقودة : مدونة الأكل في المطعم.

**البدائل :**

الصنف : كل المطاعم لها نفس أنواع الطعام.

إذا ما احتجت أنواع الطعام نفسها فابحث عن المطاعم التي لها نفس الأكل.

ومن الممكن **بناء مدونة الأكل** في المطعم على الشكل التالي :[25]

**العناصر** : (المطعم، النقود، الطعام، الوجبة، المائدة المقاعد).

**الأدوار** : (الزبناء، النادلون، إدارة).

**وجهة النظر** : (الأشخاص الجائعون).

**وقت الحدوث** : (زمن إشتغال المطعم).

**مكان الحدوث** : (موقع المطعم).

**توالي الأحداث :**

أولا : مدونة دخول المطعم.

ثم : إذا (ما وجدت علامة الحجز أو طلب الانتظار) فيمكن أن تنبه رئيس النادلين.

ثم : مدونة الجلوس.

ثم : مدونة طلب الأكل.

ثم : مدونة أكل الطعام وإلا فمغادرة المطعم في غضب.

ثم : مدونة أداء الثمن.

أخيرا : مدونة المغادرة.

هذه أمثلة المدونة، وأما الإطار فقد تقدم التمثيل له، ويتبين من النظرة الأولى أن هناك فرقا شاسعا بين المفهومين، فالإطار فقير بالقياس إلى المدونة إذ إن هذه تقدم معلومات أكثر من الإطار وتحافظ على رتبية الأحداث وتتابعها وتضمنها مما يتيح عملية الاستدلال والعزو، على أن القول بهذا التمايز يصح وقت ولادة مفهوم الإطار في علم النفس لدى «روش» (1973)، وفي الذكاء الاصطناعي عند «منسكي» (1975). ولكن وقع تطويره مما

(25) Idem, p. 30.

أفرز مفهوم المدونة نفسه مما جعل المفهومين مترادفين أو كالمترادفين. ولعل هذا ما دفع الباحثين المتأخرين أن يجمعوهما تحت عنوان واحد ويعرفوا بهما في فقرة واحدة. ذلك أن المكونات من عقد وروابط وَشَغَّالِينَ هي نفسها فيهما معا، وعمليات الاستدلال والعزو وطرق معالجة حل المشكل هي هي فيهما معا.

كل من الإطار والمدونة يعتريه نفس الصعوبة، فقد يستطيع المرء أن يموضع حدثا ويجعله يتلاءم مع الإطار أو المدونة إذا كان ذا معرفة خلفية تؤهله بذلك الوضع والتمكين. وأما إذا كان الحدث فريدا وغير معتاد فإنه لا يستطيع ذلك. وقد تفطن «شانك» لهذه الصعوبة منذ 1982 فاقترح أن تنظم المعرفة في بنيات صغيرة أسماها «مجموعات تنظيم الذاكرة»، أي تحليل المدونة إلى وحدات صغيرة تدعى المشاهد. فأي مفهوم يمكن أن يتشعب : الانتظار : الانتظار في عيادة الطبيب والانتظار في مكتب المحامي... وقد تؤدي عملية التشعب هذه إلى أحداث شاذة غير مألوفة في نظر المقاربة الإطارية أو المدونية التقليدية ولكن العملية هذه تردها إلى منبعها مما يضمن نوعا من المماثلة بين الإطار وفرعه، وقد ذهب «شانك» أبعد من الربط بين المفاهيم ليقدم مفهوما جديدا بعنوان «نقط التنظيم الموضوعاتي» للربط بين ما يتشابه موضوعيا.(26)

كل هذه المقترحات النظرية تحاول أن تربط العلائق بين مكونات إطار أو مدونة أو موضوع أو شيء أو بنية : هناك ؟ منطلق « Type » وهناك إنجازات له « Tokens » تنتمي إليه عن طريق علاقة «الوراثة» أو «الولاء» متجلية في المماثلة أو المشابهة أو الترابط العرفي والثقافي، أو ليست هذه هي أدوار الاستعارة والكناية وآلياتهما ؟!

### 3. 1. 4. السيناريوهات

ليس مفهوما الإطار والمدونة وحدهما المستعملين لتفسير اكتساب المعرفة وتنظيمها وكيفية استعمالها، وطرق تأويلها وإنما يجد المهتم مفاهيم أخرى تعكس التسبيب والترابط والتنبؤ والتعدية... وهذه المفاهيم هي : السيناريوهات والخطاطات. وسنكتفي بالتمثيل للسيناريو.

(26) Roger Schanck and Alex Kass, « Knowledge Representation in People and Machine », in U. Eco et al, (eds), (1988), pp. 181-200.

**لعبة كرة المضرب.**[27]

المشاركون وخصائهم ومواقعهم :

1. <اللاعب ـ 1>
2. <اللاعب ـ 2>
3. <الملعب ـ>
4. <الملعب ـ 1>
5. <الملعب ـ 2>
6. <(4)، و(5) يكونان جزءا من (3)>
7. <شبكة>
8. <(7) تفصِلُ (4) و(5)>
9. <الكرة>
10. <خصائص (9)>
11. <المضرب ـ 1>
12. <المضرب ـ 2>
13. <خصائص (11) و(12)>
14. <موقع (1) في (4)>
15. <موقع (2) في (5)>

عند التـأمل في هـذا التحليل وغيره ممـا تقـدم في الشبكـات الـدلاليـة، ومفهوم الإطـار ومفهوم المدونـة نجـد أوجـه شبـه كبير بينـه وبين التحليل بـالمقومـات الموروث عن المنطق الأرسطي والشجرة الفورفورية. وإذا ما كـان التحليل بـالمقومـات يركز على تفكيـك المفهوم في حد ذاته فإن التحليل في ضوء المفاهيم المذكورة يتم ضمن بنية كلية، ولكن تحليل البنيـة إلى عنـاصرهـا يتم عبر الآليـات نفسهـا تقريبـا، فـالمحلـل للمفهـوم ـ المفردة يترصـد مختلف مقوماتها والمفكك للبنيـة يـذكر عنـاصرهـا. وهكـذا فـإننـا نجـد «المنزل» يفكـك إلى المطبخ والحمام والغرف والعنوان... وهذه هي الموالئ المقومة التي يملأ بها الفضاء، ويمكن أن تماثل بالمقومات الملاصقة، كما أنه إذا التجئ إلى الاستدلال بالغياب للعزو فإن «الرسم» قـام بـذلـك.

(27) H.M. Noble, (1988), p. 196.

وعلى هذا، هل يمكن الزعم أن ليس هناك فرق كبير بين أن نحدد «الوجه» في ضوء الشجرة الفورفورية أو أن يقال : إن «الوجه» خطاطة أو إطار أو مدونة تفرع عنها : «العين» و«الفم»... كما يمكن تفريع «العين» و«الفم»... وهكذا.

### 3. 1. 5. النماذج الذهنية

لقد أدرك كثير من الباحثين هذه الصعوبات فثاروا ضد مقاربة تفكيك الكلمات لإدراك معنى الجمل (كاتز وفودور) (التحليل بالمقومات في مصطلحنا) وضد تحليل نموذج الترابط المفهومي (روجي شانك)، واقترحوا عدة مفاهيم كـ «الأمثلة» « Prototypes »، والنماذج الذهنية « Mental Models »، والنماذج العامية « Folk Models » ومنطلقات هؤلاء الأساسية هي أن الفهم «يحصل عبر النماذج الذهنية أكثر من حصوله عبر تحليل معاني الكلمة،[28] «كما أن مثل هذه المفاهيم تبتعد عن تعداد المقومات التي هي غير منحصرة، لأن التعداد من اهتمام العارفين وانشغالاتهم. وبعيد عن كيفية تفكير الناس العاديين في حياتهم اليومية وعن كيفية تأويل تجاربهم».[29]

أهم من يمثل هذا الاتجاه هو «دجونسون ليرد» « Johnson – Laird »[30] وإذا ما نظر إلى آخر ما كتب فإن القارئ يجده يستعرض النظريات الرائجة من مثل الشبكات الدلالية وتحليل المعنى إلى الأوليات الدلالية (التحليل بالمقومات)، والمسلمات المعنوية (الرسم، والإستدلال). وقد وجه الانتقادات المتداولة لهذه النظريات، ثم أكد في نهاية تحليله التاريخي والدلالي إلى أن مفهوم المثال عِنْدَهُ « Prototype » هو مثل مفهوم الإطار عند «منسكي» وخصوصا جوهر هذا المفهوم والمفاهيم المماثلة له. أي الاستدلال بالغياب.

إن القاسم المشترك بين هذه المفاهيم جميعها هو محاربة النزعة الذرية الوضعية التي تعكسها الإبستمولوجية الأرسطية والشجرة الفورفورية، وتجلياتها المختلفة لدى الأرسطيين الجدد في مصطلحات جديدة : منطق المحمولات والشبكة الدلالية والأوليات الدلالية

27) ترجم هذا المثال من الكتاب المذكور إزاءه.

(28) Guillian Brown, George Yule, (1983), Discours Analysis, Cambridge University Press, pp. 250-256 (251).

(29) Soltan Kövecses, (1986), p.

(30) Johnson-Laird, (1983), Mental Models: Toward a Cognitive Science of Language, inference and consciousness. Cambridge Univeristv Press.
« Howis Meaning Mentally Represented », in U. Eco et al, (1988) pp. 99-118.

والمسلمات المعنوية...[31] وهو اقتراح إطار نظري مرن يسمح بإدراك تقريبي للمفاهيم يستوي فيه الخبير والإنسان العادي، وهو فسح المجال للمساق اللغوي والأوضاع العامة لتمنح للمفهوم دوره في إطار بنية شاملة متماسكة تتحقق عبر آليات التشعب والربط والتشغيل، ويبنى ما فيها من فراغ بالاستدلال بالغياب والفروض الاستكشافية والتقييس، وهو تبني إبستمولوجية «العلم المعرفي» التي تكشف أعمال «لايكوف» و«دجونسون» بعض أبعاده.

## 3. 2. تحليل الاستعارة في ضوء «العلم المعرفي».

### 3. 2. 1. عند لايكوف ودجونسون

إن التعريف بهذه المفاهيم الرائجة في مقاربات الذكاء الاصطناعي وفي ميدان علم النفس المعرفي قصدنا منه تقديم الخلفية النظرية لبعض المقاربات الاستعارية، إذ لا يمكن أن تفهم حق الفهم إلا بهذا التأطير. و«جورج لايكوف» و«مارك دجونسون» من أحسن من وظف هذه المعارف الجديدة في كتابهما «نحيا بالاستعارة» وفيما تبعه من أعمال مؤثرة.

سنشير إلى ثلاث منطلقات أساسية لديهما محيلين على المراجع لمن أراد المزيد، وهي :

- ☐ رفض المعرفة «الموضوعيانية»والواقعية الميتافيزيقية.
- ☐ الاعتماد على «المعرفة التجريبانية» التي تتخذ الذات والجسم بما فيهما من حواس ودماغ وذهن وأوهام ومعتقدات قناة ضرورية لاكتساب المعرفة.
- ☐ تبني مفاهيم الأطر والمدونات والخطاطات والأمثلة والصور الذهنية والاستعارة والكناية.

منطلقات الفلسفة الوضعية[32] أو ما دعاه «جورج لايكوف» ب «المعرفة الموضوعيّانيّة» Objectivist cognition هي : ربط الرموز بأشياء العالم أي أن كل مفهوم له ما يقابله في العالم الخارجي وإلا لَنْ يَكُونَ له معنى ولا فائدة من وجوده، وأن علاقة الربط بين الرموز والأشياء إعتباطية ولا ينتج عنها إلا معنى وحيد غير قابل للترادف، ومع أن الإنسان هو الذي يجعل العلاقة بين الرموز والأشياء فان الذات لا تؤثر في العالم وفي الرموز.. كما أن

[31] يحتل منطق المحمولات والشبكات الدلالية مكانا مرموقا في المعالجات الحاسوبية. ومع ذلك، فإن المختصين في هذا الميدان يبينون قصورهما وحدودهما. وقد اقترحت المفاهيم التى تعرضنا لها سدا للقصور وتجاوزا للحدود.

[32] منطلقات الفلسفة الوضعية معروفة لدى المختصين في الفلسفة وفي فلسفة العلوم.

الواقعية الميتافيزيقية صنفت أشياء العالم ضمن مجموعات متباينة أو إلى مجموعات متقاطعة لاشتراكها في بعض المقومات الضرورية... وقد فندت أغلب هذه المنطلقات دراسات فلسفية وبيولوجية.[33]

وأما ما يعتمد عليه «العلم المعرفي» فهو اعتبار جسم الإنسان وقواه الفطرية وما له من خيال وقوة إبداعية مصدرا للتفاعل والانفعال والفعل، فعن طريق تفاعل الجسم الإنساني مع العالم المحيط به يرى المرء الصور ويقلب النظر فيها ويدقق البحث فيها ويعرف مواقع عناصرها... وعن طريق قواه الخيالية والابداعية يصوغ خطاطات ومقومات ويؤلف استعارات وكنايات. وما دام المحيط الذي يعيش فيه البشر يختلف اختلافا جذريا أو نسبيا فان المجال يفسح للنسبية الثقافية[34] ولنسبية الإدراك الفردي وإن كان هناك قاسم مشترك من الثقافة ومن الإدراك يدعى المعرفة الشعبية. ولذلك سميت مجموعات الخطاطات المميزة لبنية مقولية ثقافية لمجال تجربة معينة : النظريات الشعبية « Theory Folk ».[35]

القدرات المعرفية العامة والتجربة الجسدية بالتفاعل مع المحيط وصياغة المقولات فعاليات غير منفصلة تتحقق في فضاء هو وعاء المعرفة والمساهم في تنظيمها وخلقها. ولدور الفضاء هذا اجتهد «جورج لايكوف» و«مارك دجونسون»[36] في إبراز خصائصه ومكوناته وتحققه في كثير من التعابير الاستعارية. كما أوضح «جورج لايكوف»[37] عناصره البنيوية (الداخل، الحد، الخارج) ومنطقه القاعدي المتحكم فيه مبدأ الثالث المرفوع. وخطاطة الهدف والمسار والمصدر.[38]

يحتل مفهوم الخطاطة مركزا أساسيا لدى «جورج لايكوف» و«مارك دجونسون»، ومعلوم أن الخطاطة ليست الا إسما آخر للإطار والمدونة والسناريو والنماذج الذهنية، وهذا ليس غريبا إذ إن كل هذه المفاهيم تنتمي إلي مجال «العلم المعرفي». ولمزيد من الإيضاح

(33) Georges Lakoff, « Cognitive Semantics » in U. Eco et al. (eds) (1988), pp. 119 154.

34) لو لم تدخل هذه الوجهة من النظر مفهوم «القوة الفطرية» لانتهت إلى عرقية مقيتة.

35) هذه هي خلفية : الاستعارة الشعبية، والنماذج الشعبية.

(36) G. Lakoff, M. Johonson. (1980).

(37) G. Lakoff. (1988).

38) وهناك نظرية شهيرة في اللسانيات تدعى النظرية الفضائية.

(38) Günter Radden, « Spacial Metaphors Underlying Preposition of causality », in Wolf Propreotte et René Driven, (eds), (1985), The Ubiquity of Metaphor in Language and Thought, Amsterdam.

والتدليل نترجم مثالين شهيرين جاءا في كتاب «نحيا بالاستعارة»، ونقارن بينهما وبين المدونة لتدرك أوجه الالتقاء والافتراق.

**المثال الأول : الجدال حرب.**

**مشاركون** : المشاركان أو المشاركون يمثلان أو يمثلون دور الخصمين.
الموقعان : تخطيط الاستراتيجية، الهجوم، الدفاع، الانسحاب، المناورة، الهجوم، المضاد، تضييق الخناق، الهدنة، الحصار / النصر.
**المراحل** : الشروط الأولية : للمشاركين مواقع مختلفة، كل واحد منهما يحاول محاصرة الآخر، كل مشارك يتحمل مسؤولية الدفاع عن موقعه.
البداية : أحد الخصمين يهاجم الآخر.
الوسط : تركيب الدفاع.
المناورة
التراجع
الهجوم المضاد
النهاية : اما الهدنة أو تضييق الخناق أو الحصار / الانتصار
**الحالة النهائية** : السلام أي المنتصر يسيطر على المنهزم.
**التوالي الخطي** : التراجع بعد الهجوم
الدفاع بعد الهجوم
الهجوم المضاد بعد الهجوم.
**التسبيب** : الهجوم ينتج عنه الدفاع أو الهجوم المضاد أو التراجع أو النهاية.
**الغاية** : الانتصار.

**المثال الثاني : زيد أطلق النار من مسدسه على عمرو.**

**المشاركان** : زيد (مطلق النار)، وعمرو (الهدف)، والمسدس (الأداة)، والرصاص (الأداة).

الأجـــــزاء : تسديد المـدس نحو الهدف.
إطلاق الرصاص.
الرصاص أصاب الهدف.
أصيب الهدف.

**المراحـــــل** : الشروط القبلية : الرامي رفع المسدس
البداية : الرامي سدد المسدس نحو الهدف.
الوسط : الرامي أطلق رصاص مسدسه.
النهاية : الرصاص أصاب الهدف.
الحالة النهائية : أصيب الهدف.

**التسبيـــب** : البـداية والوسـط يمكنـان من النهـايـة، والـوسـط والنهـايـة يتسببان في الحالة النهائية.

**التصميـــم** : الهدف : الحالة النهائية.

**التخطيـــط** : توفر الشروط القبلية وإنجاز البداية والوسط

هذان هما المثالان الشهيران. وقد يطرح القارئ سؤالين حينما يقرؤهمـا ويتمعن فيهمـا؛ أولهما إذا كان مثال «الجدال حرب» استعارة، فمن أين تـأتي الاستعـارة لـ : «زيـد أطلق النـار من مسدسه على عمرو» ؟ وثانيهما لماذا هذا العناء في التحليل وَكَدّ الـذهن في حين أن الأمر أيسر من ذلـك في الاجراء التقليـدي ؟ لـلاجـابـة عن الـسؤال الأول سنبـدأ في المقـارنـة بين المثالين والتحليل المدوني.

| المحاضـرة | الحـرب | إطلاق النـار |
|---|---|---|
| المشاركون | المشاركون | المشاركون |
| العناصر | الموقعان | الأجزاء |
| تتابع الأحداث | المراحل | المراحل |
| (بداية ووسط ونهاية) | (بداية ووسط ونهاية) | (بداية ووسط ونهاية) |
| التسبيب (ثم) | التسبيب | التسبيب |
| الغاية (تدوين المحاضرة) | الهدف | الهدف |

قد يقال : إن هذه الأمثلة مستقاة مما يدل على التفاعل والصراع، سواء أكان هذا التفاعل صَريحاً أم ضِمنيّاً، وبطبيعة الحال، فان التفاعل لا يقع الا بين عنصرين أو عناصر متواجهة متحفزة ليؤثر كل منها في الآخر أو يظفر به باستعمال وسائل تتنوع بحسب المجال والظروف والغايات المتوخاة، وبالضرورة فان سلسلة أحداث المواجهة، تقع في ترابط سببي عبر زمن خَطّيٍّ ذى ثلاث مراحل : إعدادية وإنجازية ونهائية. ولكن هذا التحليل لا يختص بما فيه تفاعل فقط، وإنما يمكن إنجازه على : «الخد وردة»، فالوردة تنتمي إلي حديقة تقع في فضاء معين وتحتوي على أزهار مختلفة متنوعة الألوان والروائح والأحجام والأشكال، فيها متعة للناظر وسرور للمتنزه.. ولها وقت فيه تنبت وثان فيه تزهر وثالث فيه تذبل.

المهم ليس وجود التفاعل أو عدمه، إذن، وإنما هو تحليل المفهوم سواء أكان استعاريا أم غير استعاري ضمن بنية شاملة لتبرز مكوناته المتعددة حتى يمكن إيجاد علاقة بينه وبين مفاهيم أخرى. وإيجاد العلاقة هذا نتخذه منطلقا للإجابة عن السؤال الثاني المطروح أعلاه. وتوضيحا لهذا فلننظر في الأمثلة التالية : «الجدال حرب»، و«الأكل في المطعم»، و«عملية القتل». ان النظر إليها هكذا منعزلة لا يوحي بأية علاقة بينها ولكننا إذا حللنا «الجدال حرب» إلى مشاركين ومراحل وَتَوَالٍ خطي، فقد يصح أن يقال : «الأكل في المطعم جدال» لوجود مشاركين ومراحل وتوال خطي، كما يجوز تأليف هذا التركيب : «القتل أكل في المطعم» لوجود مشاركين ومراحل وتوال خطي. وهكذا إلى مالا نهاية. فَبتَحْليلِ الاستعارة الأولى فهمنا الثانية، وبالاعتماد عليهما أدركنا الثالثة، ومن ثمة صح إيجاد علاقة بين ما يظهر متنافرا، لأن «الاستعارة تستعمل لتجاوز معنى المفردة المعروف ونقل بعض خصائصه إلى ميدان تطبيقي غير معروف»[39] وليست هذه القولة إلا خلاصة للآراء الجشطالية والتحسيبية والمعرفية حول الاستعارة التي ترى فيها وسيلة معرفية لتنظيم المحيط ذهنيا للعيش فيه والتفاعل معه والتواصل بنجاح فيه. إذ بها يتم حل المشاكل العلمية والسياسية واليومية.. ولكن إلى أي مدى يذهب المرء في عقد هذه المشابهات بين المفاهيم أو بين الأحداث ؟ قدمنا قبل أنه وقعت التفرقة بين القياس المعتمد على مماثلة معقولة ومضبوطة وبين التفكير بالمشابهة الذي يقرن بين أشياء عن طريق الوهم، ولكن تلك التفرقة لم تعتمد بعد على

(39) Thomas T. Balmer, « The Root of.. Archetypes, Symbols Metaphors, Models, Theorie », Poetics 12 (1982) pp. 493-539. (521).

شروط ضرورية وكافية ولذلك نجد من يذهب إلى أبعد مدى في التقييس ونجد آخرين ينتقدون آليته التي تعنى «كل شيء هو مثل كل شيء».[40]

### 3. 2. 2. عند آخرين

تلك هي الخلفية النظرية التي اعتمد عليها «جورج لايكوف» و«مارك دجونسون» في تحليلهما للاستعارة، وهي خلفية العلم المعرفي الذي وظفا منه بعض المفاهيم بكيفية غير معلنة في كتاب «نحيا بالاستعارة» واستثمرها علانية «جورج لايكوف» في أبحاثه الأخيرة. وقد شاع هذا التناول لدى باحثين آخرين نذكر منهم على سبيل المثال «زولطان كوفيتش».[41] إذ نجد عنده **السيناريو** النموذجي للغضب، **والمثال** للعجب، والنموذج المجرد، والنموذج الخصوصي للحب، ومراعاة التجربة الجسدية والنفسية.

قد دعا تسلسل الأحداث وترابطها في زمن خطي بالسيناريو النموذجي للغضب، وهذا السيناريو يحتوى على خمس مراحل :

- مرحلة أولى : الحدث المغضب (مشاركون، المغضب، المغضب، الحدث المغضب).
- مرحلة ثانية : ظهور أعراض الغضب على المغضب.
- مرحلة ثالثة : محاولة المراقبة.
- مرحلة رابعة : فقدان المراقبة.
- مرحلة خامسة : فعل العقاب.

وما فعله «كوفيتش» مزيج من المدونة والسيناريو، إذ يجد القارئ : **مشاركين** (عامل وأداة وفعل ورد فعل وصراع مع الذات والآخر.. **ومراحل** متدرجة ومتتابعة وهي : السببية (أسباب الغضب) وإنجازية (الجزء) ونهائية (عودة التوازن). وهذا التأطير البنيوي الشمولي لمفهوم الغضب يجعل القارئ بعيدا كل البعد عن التحليل بالمقومات التجزيئيي الذي يحدد الغضب بأنه «إحساس حاد بالاساءة».[42]

وقد أسمى أسباب العجب وتتابع أحداثه والانفعالات المتولدة عنه **مثالا**. وهذه السيرورة الحدثية تمر بمرحلتين أساسيتين : مرحلة سبب العجب وهو العمل ذو القيمة

(40) A. Ortony, « The Role of Similarity in Similes and Metaphore », in A. Ortony (ed), (1986), pp. 186-201 (192).
(41) Zoltan Kövecses, (1986).
(42) Idem, p. 28.

الاجتماعية وذو الأهمية، ومرحلة الافتخار المتجلي في علامات فيزيولوجية وسلوكية،[43] وإذا ما أردنا صياغة هذا المثال بحسب العلل فإننا نجد العلة الصورية المتجلية في الإدراك المباشر، والعلة الفاعلية في المنجز والعلة الغائية هادفة إلى إسعاد المنجز والمجتمع. وقد أضمرت العلة المادية لأنها تتكيف بحسب الغاية.

إن المثالين اللذين رأيناهما في الغضب والعجب عززهما الباحث بثالث متعلق بمفهوم الحب وقد قسمه إلى نوعين : نموذج مثالي، ونموذج خصوصي.[44] فالنموذج المثالي ذو مراحل :

- مرحلة أولى : فيها مشاركان (محبوب ومحب وعواطف).
- مرحلة ثانية : أثناء عملية الحب.
- مرحلة ثالثة : فقد المراقبة على الذات وما ينتج عنها من علامات فيزيولوجية، وردود أفعال سلوكية وعلاقات ومواقف اِنْفِعَالِيَّة. وأما النموذج الخصوصي فهو يشترك مع المثالي في عناصر ويختلف معه في أخرى.[45]

من خلال التأمل في النموذجين يخرج المرء بالملاحظات التالية :

□ أن النموذج المثالي يتم بطول مدة البحث عن المحبوب وبمعاناة الشدائد للعثور عليه بعكس النموذج الخصوصي، وما يأتي بعد معاناة شديدة يكون الانجذاب نحوه بقوة شديدة، وهكذا، فان المُحِبَّ المثالي يفقد المراقبة على ذاته بدءا ويستمر مع فقده ومعاناته مرورا. وأما المحب الواقعي فهو يحاول المقاومة في البداية ثم يستسلم للحب ثم يتزوج.

□ أن الباحث أفلح حقا في ذكر كثير من مكونات النموذجين، وفي رصد الفروق بينهما. ومع ذلك فيمكن أن يلاحظ عليه غياب وعدم تنظيم واختزال، فالغياب يتجلى في اكتفائه بحالة واحدة في كلا النموذجين وهي : الحب المتبادل.

(43) Idem. p. 48.

(44) يجد التراث العربي مادة غنية لإقامة مثال « Prototype » للحب. وقد فعلنا هذا في دراسة عن مثال الحب في الأندلس. ولكن تبين لنا أنه يجب تعميمها بما هو رائج من استعارات شعبية عن الحب.

(45) Idem. pp. 93-105.

وهده الحالة ليست الا واحدة من جملة حالات أخرى ممكنة وهي : المحب (الرجل)، والمحبوب (المرأة) التي لا تبادله حبا بحب. المحب (المرأة) والمحبوب (الرجل) الذي لا يكترث. التحاب. كما قد تكون هناك حالة مزيج بين المحبة والكره. وأثناء ذلك تكون هناك مساعدات للظفر بالمحبوب أو تكون هناك معوقات. وأما عدم التنظيم فيتجلى في عدم ترتيبه لعناصر سيناريو النموذجين مع أنه يعترف بوجود التسلسل فيهما. ولهذا، فاننا نقترح أن يكون ترابط الأحداث وتتابعها على الشكل التالي : أ) ـ مرحلة البحث. ب) ـ مرحلة العثور. جـ) ـ مرحلة الانجذاب. د) ـ مرحلة محاولة المراقبة وفقدها. هـ) ـ المظاهر الفيزيولوجية والسلوكية. و) ـ المواقف الانفعالية. ويصاحب عدم التنظيم هذا اختزال لاحظناه على مستوى تنوعات إسناد الحب كما لاحظناه على مستوى جعل المحب مسرورا في كلا النموذجين. وقد يقال : إن هذا راجع إلى النسبية الثقافية التي تقول بها هذه المقاربة، على أن المهتم غالبا ما يجد في الثقافات العالمية أن المحب المثالي مصيره الحمق والهلاك.

ان هذه الملاحظات تحتم قول ما يلي : ان الاعتماد علىالاستعمالات الاستعارية الرائجة بين المتداولين للغة من اللغات لبناء نظرية شعبية للمفاهيم يجب أن يكون مستقصيا وإلا أدى إلى تصور مشوه لخطاطة أو مثال أو نموذج ذهني. وإن مقاربة اتجاه ما يدعى بأصحاب التجربة الفينومينولوجية ـ مع أنها حققت بعض أهدافها في تجاوز التحليل الوضعي الذري، وفي الربط بين المفاهيم والظواهر والأحداث ـ إذا لم تضبط تصير منهاجية «شعبوية».

## 3. 3. حدود مقاربة العلم المعرفي

### 3. 3. 1. استعارة رابطة بين أشياء العالم

عرضنا في الفقرة السابقة المقترحات الفلسفية والنظرية والإجرائية التي ترفض منطلقات النظرية الفلسفية الوضعية المتوارثة من عهد أرسطو إلى الآن بما تعنيه من وجود كيانات ذات خصائص تربط بينها علاقة في استقلال عن أي تدخل إنساني، هذه الكيانات التي صنفت إلى مقولات دعيت بالمقولات الطبيعية، وبما تعنيه من نظرية مرجعية وشروط صدقية. وقد أفسحت المجال للتجربة الجسدية المتفاعلة مع المحيط لصياغة مقولات وضبط الكون على ضوئها ووضعت مفاهيم مثل الإطار والمدونة والمثال والنماذج الذهنية والخطاطة... لتبني قواعد تحليلها واستدلالها وتنبؤها وحل المشاكل التي تعترضها. وقد طبقت هذه المفاهيم في تحليل الإستعارة كما نجد عند «جورج لايكوف» و«مارك دجونسون»

و«كوفيتش» وغيرهم. وقد تجلى هذا التطبيق في تحليل جمل منعزلة مثلما يجد القارئ في كتاب «نحيا بالاستعارة» : «الجدال حرب»، «والنظرية بناء»... أو في تجميع جمل حول استعارة تدعى «الاستعارة المفهومية» التي هي القطب والجاذب لكل ما يدور حولها من استعارات مثلما يعثر عليه المهتم في كتاب «كوفيتش».

### 3. 3. 2. استعارة رابطة بين أشياء النص

هذه التطبيقات إذن لم تتناول الاستعارة في النص ولم تقترب من النصوص الاستعارية، وهذا شيء يجعلنا في حرج من أمرنا، إذ إننا نريد تحليل النصوص الاستعارية مثل المناقب والكرامات وبعض الشعر المعاصر وبعض الأقصوصات والأمثال القرآنية الطويلة. هل نعتبر كل ما قدمناه مجرد تعريف للقارئ بمقاربات حديثة يطلع عليها ثم يغسل ذاكرته من أدرانها ؟ لوصح هذا لأطحنا بالمسألة التي نريد حلها وهي : فهم الاستعارة النصية وتأويلها، ولأصبحت هذه المقاربات قاصرة. وإذا أردنا إثبات العكس أي جوهرية ما كتبنا وشمولية النظرية فلنقدم طريقة ملموسة وعملا مجسما، فأما العمل المجسم فنرجئه إلى الفصل التطبيقي وأما الطريقة فها هي.

قدمنا أن الإطار والمدونة والحوار تنطلق من عقدة أولى أساسية تتفرع عنها عقد فرعية، بعضها يتشعب وبعضها يتجمد... وهكذا إلى غاية ونهاية. ونعتقد أن هذا صار أمرا معروفا للقارئ إذا تمعن فيما كتب واستوعبه. وما عليه الآن الا أن يقيس اللامعروف وهو الاستعارة على المعروف المدونة، وإذا صحت عملية القياس فإن عليه أن يفترض أن هناك استعارة أمّاً واستعارات متفرعة عنها تتوالد عنها استعارات أخرى إلى نهاية النص.

قدمنا أيضا أن الربط ممكن بين ثلاثة مفاهيم وهي : الحرب والمحاضرة والقتل لمماثلة بين بعض مكوناتها، وهذا شيء صار معروفا لدينا، وعليه فاننا نفترض أن الاستعارة الثانية تفهم بالأولى والثالثة بهما وهكذا إلى نهاية النص بتوظيف مفهوم التعدية.

ولنطمئن القارئ إلى هذا الصنيع فاننا نسوق له بعض التوظيفات، أحدها لغيرنا والثاني لنا؛ فأما الذي لغيرنا فهو لـ «رني ديرفن»، فقد مثل الباحث للاستعارة النصية بخرافة «جورج أورويل» : «المزرعة الحيوانية»[46] باعتبارها مشبها به « The vehicle » لمشبه Tenor مكون من تجربة «أورويل» عن الثورة الروسية بما فيها من تنافس عميق بين المدافعين عن الصناعة

(46) René Dirven, « Metaphor as a Basic Means for Extending the Loxicon » in Wolf Paprotte et René Dirven (eds), (1985), pp. 85-119.

الثقيلة وبين أنصار الفلاحة،[47] فالحيوانات وأعمالها الإنسانية هي المشبه به، والمتنازعون في روسيا مشبه. وقد صور المؤلف ثورة الحيوانات ضد صاحب المزرعة، ونزاعاتها الداخلية وتسخير بعضها ضد بعض. وقد رأى الباحث أن ليس هناك كلمات استعارية أو جمل استعارية في «المزرعة الحيوانية»، وانما «الحكاية كلها تشتغل بمثابة مشبه به لتجربة» أورويل «عن الثورة وعن أهم الاتجاهات المتنازعة في الثورة الروسية».[48]

وقد دعيت هذه الاستعارة النصية بـ «التمثيل» « Allegory ». ونقل الباحث تعريفا عن «ليتش» « Leech » للتمثيل هو أن : «الرمز المتعدد هو ما يكون فيه عدد من الرموز المختلفة ذات التأويلات الفردية المضموم بعضها إلى بعض لصنع تأويل شامل».[49] هذا الفهم للتمثيل هو الذي وظفناه في دراستنا لأقصوصة «الغابر الظاهر»،[50] و سنوظفه في دراسة لمنقبة صوفية في آخر هذا الكتاب، ومع أن القارئ سيجد ذلك مفصلا في محله فاننا نقدم له خطاطتها الآن توضيحا للفكرة التي نتحدث عنها. فقد اعتبرنا المنقبة تمثيلا محتويا على رمز أساسي يتشعب إلى رموز مختلفة، سواء اعتبرنا المنقبة مشبها به أم مشبها، فإذا ما اعتبرناها مشبها به كان التحليل كالتالي : المعصية منجل؛ وشعر العانة شجر السدر؛ والإنسان قنفذ؛ وأنواع العبادات الماء والتين والزبيب؛ وخلوة العبادة خابية؛ والمواعظ جبائر؛ والنبي صوفي. وإذا ما اعتبرناها صادرة عن بنية أعمق وأشمل وهي البنية الدينية فان مواقع المشبه والمشبه ستقلب،[51] وهذا ما تحريناه في تحليل أولي لأسباب. ومهما يكن الأمر فإننا ضمنا تأويلات هذه الرموز بعضها إلى بعض لصنع تأويل شامل.

### 3. 3. 3. الاستعارة رابطة بين العالمين

وعملنا هذا ليس قائما على الاعتباط أو التحكم أو على أوهام مرضية، وإنما هو نتيجة منطقية لما تقدم من بيانات نظرية، فالإطار الأصلي والأطر الفرعية والمدونة ومشاهدها والعقد الأصلية وعقدها الفرعية تفترض هي كلها ما يسمى بـ «انفصال الاحتمال» و«التشعب» و«تداخل الأطر».. ومعنى هذا أن المنطلق الأول يتوقع تشعبه إلى شعبتين أو أكثر ثم احتمال

(47) Idem, p. 93.
(48) Idem, p. 93.
(49) Idem, p. 93.
(50) محمد مفتاح (1987)، دينامية النص - تنظير وممارسة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
(51) يراجع الفصل الثاني لإدراك الفرق بين العمليتين.

تشعب آخر وهكذا... ومع هذا، فان النص غالبا ما يسير في خط مستقيم مُعَقَّداً ما انطلق مِنْهُ وموضحا له ومفصلا لجزئياته... ولهذا، فان الاستعارة ضامنة لانسجام مُكَوِّنَاتِ أَجْزَاءِ النص بربط مفاهيمه وجمله وفقراته. وقد دعا بعض الباحثين هذه العملية وهذه الوظيفة بـ «نظريات انسجام النص».[52] فأما عملية الربط بين مكونات النص والعالم الخارجي فأسماها «نظرية المطابقة».

قد لا تثير نظرية الاتساق (في مصطلحنا) صعوبة تذكر، ولكن ما يحدث الصعوبة هو نظرية الانسجام (المطابقة عند «ماك كورمك»)، أي التساؤل عن سر توالد النص أبطريقة اعتباطية وطوعية أم هناك مبادئ باطنية تدفعه إلى ذلك فيكون مجرد تظهير لها ؟ الجواب متعلق أساسا بالدراسات العلمية والفلسفية والنفسية، وبالنتائج التي ستتوصل إليها. على أن كثيرا من الآراء ترى أن هناك قاعدة تفاعلية وتناقضية طبيعية أو ثقافية تتشعب إلى قواعد فرعية تصبح بدورها قاعدة وهكذا. وعلى هذا، فان الاستعارة وما أشبهها من ظواهر لغوية ليست إلا عاكسة لهذه التناقضات الأساسية التحتية والفرعية. النص، إذن، استعارة للواقع المتشعب والاستعارة ليست إلا وسيطا للربط بين العالمين، فـ «المقولات المتقاطعة لكثير من عقد الشبكة التراتبية الدلالية تبني قنطرة للعبور إلى أشياء العالم الطبيعي وأحداثه».[53] ولكن كيف تعطى دلالة للعالمين المتجليين في النص ؟ وكيف ينظر إلى مسألة خصوصية النص ؟ وكيف تبنى قراءة متعددة ؟ قد تسهم في الإجابة عن هذه الأسئلة التأويليات.

(52) Mac Cormac Eart R. (1985), pp. 211-225.
(53) Idem, p. 213.

الفصـــل الرابـــع

# 4. التأويـــل

## الإشكـــال

يتبين من هذا أن التشعب والتنظيم شرطان في وجود الظواهر الإنسانية وفي إعطائها معناها ودلالتها. ومن جملة الظواهر الإنسانية النصوص اللغوية التي هي صيرورة منظمة. ولكن إذا كان هذا جوهرها وطبيعتها فإنها تختلف في كيفية تقديمها. فقد يبرز النص أحيانا في ثوب شفاف يرى القارئ من خلاله المعاني بدون أدنى جهد وكد للذهن، وقد يقدم في تعابير مبهمة وغامضة تحتاج إلى إعمال النظر لتفهم وتؤول، وقد يصاغ في تمثيل تدرك معانيه الحرفية ولكنها غير كافية لإدراك المغزى واستخلاص العبرة. وعلى هذا، فإن النص لا يتمظهر في شاكلة واحدة وإنما في كيفيات مختلفة وراءها مقصدية المرسل، ومراعاة مقصدية المخاطب، والظروف التي يروج فيها النص، وجنس النص. وهذه الماورائيات نفسها تؤدى إلى اختلاف استراتيجية التأويل من عصر إلى عصر ومن مجموعة إلى مجموعة ومن شخص إلى شخص، بل إن الممارسة التأويلية الشخصية دينامية. وكل هذا يطرح مسألة التأويل الراجح والمقبول أو المرجوح والمرفوض أو الذي لا يخضع لأي معيار.

مسألة التأويل شائكة وشاسعة وعريقة ذات أبعاد فلسفية وسياسية وميتافيزيقية، ومع هذا كله فإننا سنقدم رؤوس أقلام حول مساراتها ومداراتها في عناصر تتناول التأويل في العهدين وفي الثقافة الإسلامية وفي التيارات المعاصرة : التأويلية الفلسفية والتأويلية الظاهراتية والتفكيكية والسيميائية ومحللي الخطاب والعلم المعرفي، وأخيرا محاولة التماس مقاييس للتأويل.

### 4. 1. التأويل القديم

#### 4. 1. 1. التأويل في العهدين

لعل بداية التأويل الأساسية المسجلة في الوثائق المتداولة بين الناس ما يجده الباحث لدى مؤولي العهدين. فقد عثروا على أمثال رأى بعضهم قبولها على ظاهرها، واقترح آخرون إعمال التأويل فيها لأن معناها الظاهري عبثي يتناقض مع أصول المعتقدات أو مع ظواهر الطبيعة. وبناء على هذا الخلاف فقد رصدت المؤلفات المهتمة بتأريخ التأويل واتجاهاته ثلاثة تيارات أساسية.[1] هناك الاتجاه الحرفي الذي يمكن أن يتخذ نموذجا له Mopsueste. فقد ناهض أوهام المدرسة التأويلية وتعلق بالمعنى الحرفي.[2] وقد أدى به صنيعه هذا إلى الوقوع في تناقضات مع آيات أخرى، ولذلك وقعت مهاجمته بعد موته واتهم بالابتداع، وهناك الاتجاه التوفيقي الذي يمكن التمثيل به «أغوسطين الهيبوني» « Augustin d'Hippone » الذي أدرك المأزق الذي وقع فيه الحرفيون. فقد فرق بين المعنى الحرفي التاريخي وبين المعنى المجازي، وقد كان يقبل المعنى الحرفي حينما يرجحه السياق ويطابق العقيدة ويحترم مقاصد الكاتب ويحتمل الحقيقة، ولكنه كان يلجأ إلى المعنى المجازي في حالة عبثية المعنى ومخالفته للعقيدة ضاربا عرض الحائط بالسياق.

معنى هذا، أن تأويل التمثيل بدأ يفرض نفسه بمجرد ما شعر المفسرون والمؤولون بغرابة المعنى الحرفي عن قيمهم إذ «كل تأويل متجذر في السياسة - يعني القيم».[3] وصاحب هذه القراءة التأويلية هو «فيلو الإسكندري» الذي عكف على تأويل العهد القديم معتمدا على التأويلات اليهودية واليونانية. وقد سار في طريقه آخرون : أشهرهم «أوريجين» الذي كان متعمقا في الفلسفة اليونانية بمختلف مذاهبها واتجاهاتها كالأفلاطونية والأفلوطينية والفيثاغورية. وكان أول ما اشتغل به الأساطير اليونانية ثم نقل خبرته هذه إلى العهد القديم،[4] فإلى العهد الجديد. وقد انطلق من تواز أو موازنة بين معنيين : المعنى الحرفي،

(1) Gerard Da Silva (1987?), Le Texte et le lecteur comme interaction objective. Pour un Monisme epistemologique.
(2) Idem, p. 106.
(3) Rick Rylance (ed) (1987), Debating Texts. Reading in Twentienth century Literary Theory and Method. University of Toronto Press.
4) **إيساغوجي** لفورفوريوس الصوري، نقل أبي عثمان الدمشقي. تحقيق د. أحمد فؤاد الأهواني، ص 12. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1375 هـ / 1952 م.

وهو العهد القديم، والمعنى الروحي، وهو العهد الجديد. وقد تجاوز هذه الثنائية إلى ثلاثية فرباعية، وهي : أن النص يحتوي على المعنى الحرفي أو المعنى التاريخي، والمعنى الأخلاقي، والمعنى الصوفي أو المعنى الروحي، أو على معان أربع وهي : المعنى الحرفي والتمثيلي والخلقي والغيبي. وقد اتبع «أوريجين» فيلسوف آخر اشتهر بأثره المنطقي بين الناس هو «فورفوريوس» صاحب إيساغوجي (المدخل) ثم (...) «طوماس الإكويني» وغيره من المؤولين.

يطول تتبع تشعبات المفسرين والمؤولين للعهدين ولن يستطيع أن ينهض بذلك العصبة أولو القوة. وحسبنا في سياقنا أن نبرز الخلاصات التالية :

□ أن نصوص العهدين تشتمل على معنيين، الأول، وهو المعنى الحرفي، والثاني، وهو المعنى الباطني أو المجازي، وهو المعنى الأساسي لأن «المعنى الحرفي يقتل (معنى النص) والمعنى المجازي يحييه».[5]

□ على أساس هذا التفضيل برزت إلى الوجود نظرية العصور القديمة والوسيطة (والحديثة) في المعاني الأربعة.

□ أن تعدد المعاني جعل بعض المؤلفين لم يكتفوا بعددها المذكور، وإنما أعلن بعضهم أن معاني النص ليس لها حدود، يقول زهر : «في أية كلمة يلمع ألف ضوء».[6] ولعل هذه القولة خير ملخص لوجهة نظر القبالة اليهودية التي تجعّل النص قابلا لأن يمنح عدة تأويلات غير منتهية لتحطيم مستواه التعبيري الخطي بتشتيت أصوات الكلمة وحروفها وإسناد دلالات للحروف والأصوات.[7] وهكذا فتحت القبالة اليهودية الباب على مصراعيه للاّ محدودية التأويل. وقد سار على نهجها البطرسيون والمدرسيون.

□ ومع أن معاني العهدين غير منتهية فإنها غير متناقضة وإنما كل منها يعزز الآخر ولا يلغيه إذ يجد كل قارئ ضالته من المعاني التي يبحث عنها فيهما وفي شروحهما بناء على مقدرته اللغوية.[8]

(5) «La lettre tue et L'esprit vévifie».
(6) Umberto Eco, (1985), p. 153.
(7) Idem, p. 153.
(8) Idem, p. 150.
– Northrop Frye. (1984), Le Grand code. La Bible et la litterature. Seuil. Paris.

### 4. 1. 2. التأويل في المجال الإسلامي

إن التيارات التأويلية الثلاثة التي ألمحنا إليها هي ما يجده الباحث في مجال التأويل الإسلامي. ولا عجب في هذا التشابه إذا ما أدركنا تأثير تلك التيارات في مفسري الإسلام ومؤوليهم ومعبريهم. وقد أثبت غير واحد من الباحثين المختصين العلاقة التي كانت قائمة بين المجالين الثقافين والتأثير الذي مورس على الثقافة الإسلامية من قبل التأويل القديم.[9] وهكذا يجد المهتم الاتجاه الظاهري الحرفي، والاتجاه الوسطي، والاتجاه التأويلي.

### 4. 1. 2. 1. تيارات التأويل الإسلامي

لعل أهم ممثل للنزعة الحرفية القصوى هم الحنابلة والظاهريون. فقد كان الحنابلة يحاربون كل ميل إلى التأويل، وإن كان قليلا، كما يمثل ذلك موقفهم من ابن جرير الطبري.[10] وذهب ابن حزم إلى تكفير من أنكر وجود الجن بتأويل الآيات الواردة فيه تأويلا مجازيا و«أهدر دمه وماله وجعله كمن جحد الله وأشرك به».[11] ولكن الحنابلة والظاهريين وكذلك بعض من سبقهم ممن عاش في بدايات بروز الدعوة الإسلامية كانوا مضطرين إلى إعمال بعض التأويل في بعض الآيات حتى يستقيم معناها مع ما أصَّلُوهُ من قواعد، ويستقيم الاحتجاج إلى المذهب.

وأما التأويليون فهم شعب كثيرة : منهم الشيعة التي ينتمي إليها الزيدية والإمامية الاثنا عشرية والإمامية الإسماعيلية (الباطنية)، ومنهم الخوارج بطوائفهم : الأزارقة والنجدات والصفرية والإباضية، ومنهم الصوفية النظريون والإشاريون، والفلاسفة والمعتزلة. وكان من هؤلاء من يهدف في تأويله الآيات الدالة على التشبيه تَنْزيه الله (المعتزلة)، أو يرمي إلى إعطاء موازنات مذهبية لمفردات قرآنية (الشيعة)، أو يتوخى استعراض تعاليم نفسانية وروحية وفلكية (المتصوفة الفلاسفة)، أو يقصد إلى تعضيد مذهب فقهي.

وقد اتخذ بعضهم المصحف كله موضع تأويل رغم اختلاف مستويات خطاب آيات الأحكام والقصص والتمثيل... وانتقى آخرون ما رأوه خادما لمقاصدهم المختلفة. بيد أنه يمكن الزعم أنهم جميعا استثمروا الآيات الوارد فيها التمثيل بكيفية صريحة أو ضمنية.[12] وقد

9) جولد زيهر، **مذاهب التفسير الإسلامي**. ترجمة. د. عبد الحليم النجار، دار الكتب الحديثة. مصر 1374 هـ / 1955 م. وأحمد أمين. ضحى الإسلام. ط. سادسة، مصر، مكتبة النهضة، 1962.

10) جولد زيهر، الكتاب المذكور، ص 107، 120.

11) جولد زيهر، الكتاب المذكور، ص 165.

12) ما ذكر أعلاه. ص 154.

وسع مفهوم التمثيل بعض متطرفي المتأولة مثل إخوان الصفاء والباطنية وكثير من المتصوفة[13] فاعتبروا كل آية من القرآن لها ظاهر وباطن وحد ومطلع. ومع ذلك، فقد تبنى كثير منهم وجود معان ظاهرة متناسبة مع معان باطنية ما عدا بعض غلاة الباطنية والقرامطة. والمعاني الظاهرة هي التي بنيت عليها أحكام الشريعة، وأما المعاني الباطنية فذات أسرار خفية[14] غير محدودة وغير محصورة، يقول أحد متأخري الصوفية : «لكل آية ستون ألف فهم، وما بقي من فهمها أكثر».[15]

غير أنه هناك تيار ثالث يحارب النزعة الحرفية والنزعة التأويلية المتطرفتين ويأخذ بروايات الثقات من السلف في فهم الآيات وتأويلها.[16] ويدخل ضمن هذا التيار كثير من الأصوليين السنيين كالمالكية والشافعية والحنفية. فقد كانوا يؤولون ولكنهم كانوا يضعون بعض المقاييس لتأويلهم. ويمكن أن نختار نموذجا نيرا لهذا الاتجاه، وهو أبو إسحاق الشاطبي. فقد هاجم الظاهريين في غير ما موضع من كتابه «الموافقات» ناقلا عن فقهاء سابقين أو صائغا أحكامه من عنده، يقول : «فقد نقل عن عياض عن بعض العلماء أن مذهب داوود بدعة ظهرت بعد المئتين، وهذا، وإن كان تغاليا في رد العمل بالظاهر، فالعمل بالظاهر أيضا على تتبع وتغال بعيد عن مقصود الشارع».[17] فالشاطبي ـ إذن ـ لا يعمل بالظاهر على الإطلاق لأسباب عديدة، أهمها أن اللغة الطبيعية، ومنها اللغة العربية، لها بعض التقاليد التعبيرية التي تأبى أن تقبل على ظاهرها مثل التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل، فإذا ما أخذت حرفيا فقد تؤدى إلى خلاف المقصود من التعبير بها، يقول الشاطبي : «كلام العرب على الإطلاق لابد فيه من اعتبار المساق في دلالة الصيغ وإلا صار ضحكة وهزءة. ألا ترى إلى قولهم : «فلان أسد أو حمار أو عظيم الرماد أو جبان الكلب، وفلانة بعيدة مهوى القرط وما لا ينحصر من الأمثلة. لو اعتبر اللفظ بِمُجَرَّدِهِ لم يكن له معنى معقول، فما ظنك بكلام الله وكلام رسوله».[18] بل إنه يذهب أبعد من ذلك فينفي كل فقه وعلم عن الواقفين مع

13) محمد حسن الذهبي، **التفسير والمفسرون**، (ج : 2. ص 216، 217)، دار الكتب الحديثة، العراق، ط. ث. 1396 هـ / 1976 م.

14) جولد زيهر، الكتاب المذكور، ص 214.

15) جولد زيهر، ص 279. ومحمد حسن الذهبي، الكتاب المذكور.

16) جولد زيهر، ص 117.

17) أبو إسحاق الشاطبي، **الموافقات** (ج : 3، ص 154).

18) الكتاب المذكور، (ج : 3. ص 153).

ظاهر الآيات، يقول : «فاعلم أن الله تعالى إذا نفى الفقه أو العلم عن قوم فلذلك لوقوفهم مع ظاهر الأمر وعدم اعتبارهم للمراد منه».[19]

الشاطبي يقر بوجود المعنى الظاهر الأساسي الذي جاء وفق قواعد العربية التي هي لغة الأميين، ولكنه مع ذلك يشترط لصحة المعنى الظاهر شيئين أساسيين :

أ - أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب ويجري على المقاصد العربية.

ب - أن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.[20] وفحوى هذين الشرطين : اعتبار قواعد العربية التي تحتوي على تعابير غير مباشرة المعنى مثل أنواع المجاز والأوامر والنواهي اللاّ مباشرة، واعتبار تواتره أو تردده في تداول الناس.

إن ما اشترطه الشاطبي يوحي بأن المعنى الباطني شيء لاَبُدَّ منه. لهذا قبل تأويلات باطنية. وقد قسم التأويل إلى نوعين ينفي عنه ما يمكن أن يلصق به من ازدواجية : باطن صحيح، وهو ما تواتر عليه علماء السلف مثلما يوجد في بعض كتب التفسير بالمأثور ومثلما يعثر عليه القارئ في «مشكاة الأنوار» و«جواهر القرآن» للغزالي. فهذا الباطن صحيح صادر عن سلف راسخ في العلم ومعتبر للمعنيين الظاهر والباطن من غير تفضيل لأحدهما ومن غير تفرقة بين الاعتبار القرآني والوجودي.[21] وأما الباطن الفاسد فهو تلك التأويلات الباطنية والرافضية والخارجية والتشبيهية وكل «الذين يتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله».[22] فليس مقبولا لدى الشاطبي أن تتمحل بعض الطوائف لاستخراج أسماء رؤسائها من القرآن مثل بيان بن سمعان رأس «البيانية» الذي أخذ من كلمة «بيان» الواردة في القرآن، وأبي منصور الذي تنسب إليه المنصورية. فقد اقتبس اسمه من «وإن يروا كسفا من السماء ساقطا»، كما أن الشاطبي يرفض تحميل القرآن ما لا يحتمل من المعاني بجعله يحتوي على علوم ومعارف من اكتشافات العصور المتأخرة.[23]

19) ما ذكر، (ج : 3، ص 885).
20) ما ذكر، (ج : 3، ص 394).
21) ما ذكر، (ج : 2. ص 84، 85).
22) ما ذكر، (ج : 3. ص 320).
23) ما تقدم، (ج : 2، ص 84، 85)، ومحمد حسين الذهبي ـ **التفسير والمفسرون**، (ج : 2، ص 485 ـ 494).

يرى الشـاطبي، إذن، أن هنـاك معنيين : معنى ظـاهر بين ومحكم جـاء وفـق مـا كـان معلوما عند الصحابة ومن بعدهم من تقاليد تعابير اللغـة العربيـة، ومعنى تـأويلي مجـازي أتى بحسب تقاليد اللغة العربية أيضا. والأخذ بالمعنيين معا في تفسير القرآن وتأويله متداول لأنـه خطـاب شـاسع يحتوي على أنـواع من الخطـاب، فهنـاك من الآيـات مـا لا يقبـل إلا التفسير وهناك بعض منهـا لا يستقيم معنـاه إلا بـالتـأويل. فـ «من جرى على مجرد الظـاهر تنـاقضت عليه السور والآيات وتعـارضت في يـديـه الأدلـة على الإطلاق والعموم».[24] فقـد يبني مفسر القرآن على قاعدة التنزيه تفسيراته ولكنه يجد فيه آيـات تشبيهيـة لا يمكن أن تقبل معـانيهـا على حرفيتها. وفي هذه الحالة فإنه يلجأ إلى خلاف الظاهر امتثالا لقاعدة التنزيه.[25] وعليـه، فإن المعنى الباطني هو الذي يضمن انسجام العقيدة وينقـذ المفسر من التنـاقض، وتبعـا لهـذا، فإنـه يصبح مفضلا على المعنى الحرفي، يقول الشـاطبي : «وعلى الجملـة فكل من زاغ ومـال عن الصراط المستقيم فبمقـدار مـا فـاتـه من بـاطن القرآن فهمـا وعلمـا، وكل من أصـاب الحق وصادف الصواب فعلى مقدار ما حصل له من فهم باطنه».[26] المعنى الباطني القرآني ليس منـه مناص، ولذلك نجـد الأصوليين خصصوا قسمـا كبيرا من كتبهم لوضع قواعـد تـأويليـة وضوابـط ومفاهيم : المطلق والمقيد والعموم والخصوص والإجمال والتفصيل والظاهر والمؤول والتعارض والترجيح والناسخ والمنسـوخ... والسياق والمساق ومراعاة الاستعمال العربي.

### 4. 1. 2. 2. مثال

لربما يكون المثال الملخص لهذه الاتجاهات التي أشرنـا إليهـا هو تـأويلات الآيـة (35) من سورة النور : فالناظر إلى تفسير الطبري وتأويلات الشيعة والزمخشري والغزالي يهوله مـا يرى من تحكم الأهواء والنزعات في الممارسة التأويليـة؛ فـالطبري يمزج بين المعنى الحرفي وبين المعنى الباطني.[27] وهكذا نجـد : المشكـاة : الكوة والمشكـاة موضع الفتيلـة والمشكـاة كوة البيت والمشكاة القنديل والعمود الذي فيـه القنـديل والمشكـاة الـذي يعلق بـه القنـديل. والمشكاة أيضـا محمـد، وصـدر المومن... وقـد فعل مثل هـذا في مفردات الآيـة، وتتبع ذلـك يطول. وكل ما نريد أن ننبه إليه أن الطبري اعتبر الآية مثلا مضروبا للناس. يقول : «ويمثل

24) ما تقدم، (ج : 4، ص 179).
25) ما تقدم، (ج : 3، ص 264).
26) ما تقدم، (ج : 3، ص 390).
27) أنظر الجزء الثامن عشر من : جامع البيـان في تـأويل القرآن للطبري، ص 109. ومحمـد حسين الـذهبي، الكتـاب المـذكور، (ج : 1، ص 205 ـ 224).

الله الأمثال والأشباه للناس كما مثل لهم هذا القرآن في قلب المومن بالمصباح في المشكاة، وسائر ما في هذه الآية من الأمثال».[28] ومراعاة لهذا التمثيل تناول الطبري المعنى الحرفي المستند إلى الأعراف اللغوية المتداولة بين الناس أثناء نشر القرآن بين الناس، والمعنى المجازي المعتمد على الأشباه والنظائر الموجودة في النص القرآني المألوفة لدى متلقيه. أي أن تأويل الطبري بقي وفيا للسياق الثقافي والاجتماعي والسياسي والديني الذي عرفه الناس في بداية الإسلام والقرنين التاليين.

إذا كان الطبري أقرب إلى روح النص فإن هناك تيارات سياسية ودينية كالشيعة، وخصوصا غلاتهم، ذهبت أبعد مدى في التأويل[29] فقد عمدوا إلى كثير من مفردات القرآن ليتخذوها دوال على معتقداتهم وشخصياتهم المقدسة. وحسبنا أن نشير إلى بعض تأويلاتهم للآية (35) من سورة النور، فالمشكاة : فاطمة، ومصباح : الحسن، والمصباح في زجاجة : الحسين...[30] أو الزجاجة : صدر علي.

على أن هناك نزعة توفيقية ذهبت أبعد مدى من توفيقية الطبري ونعني بها ما فعله الغزالي في كتابه : «مشكاة الأنوار».[31] فقد سار على طريقة المتصوفة، ولكنه لا يبالغ مثل بعضهم ليجعل تأويله من باب الإشارة،[32] كما أنه انتقد الباطنية أشد ما يكون الانتقاد.

أَوَّلَ الغزالي الآية (35) من سورة النور مستثمرا معارفه الفلسفية الأفلاطونية والأفلوطينية والفيثاغورية... ومع تفتحه الشديد هذا سجل موقفا واضحا في حدود التأويل ومداه. يقول : «لا تظنن من هذا الأنموذج وطريق ضرب المثال رخصة في رفع الظاهر واعتقادا في إبطالها حتى أقول مثلا : لم يكن مع موسى نعلان، ولم يسمع الخطاب بقوله : «إخلع نعليك» حاش لله ! فان إبطال الظواهر رأي الباطنية الذين نظروا بالعين العَوْرَاءِ إلى أحد العالمين ولم يعرفوا الموازنة بين العالمين ولم يفهموا وجهه. كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية. فالذي تفرد بالظاهر حشوي والذي تفرد بالباطن باطني والذي يجمع بينهما كامل».[33]

28) تفسير الطبري، (ج : 18، ص 109).
29) محمد حسين الذهبي، الكتاب المذكور، (ج : 2، ص 3، 298).
30) جولد زيهر، الكتاب المذكور، ص 327. ومحمد حسين الذهبي، (ج : 2، ص 141 ـ 142).
31) الغزالي، **مشكاة الأنوار**، حققه وقدم له أبو العلاء عفيفي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1383 هـ / 1964 م.
32) جولد زيهر، الكتاب المذكور، ص 221.
33) الغزالي، الكتاب المذكور، ص 73.

هكـذا يعترف الغـزالي بـوجـود معنى ظـاهر ومعنى بـاطن ذي أسرار، وهـو يجمع بين المعنيين في تأويله ولا يفضل أحدهما على الآخر فـإن كـان تعبير «الأسرار» يوحي بـأفضلية البـاطن على الظـاهر في الآيـات المضروب بهـا المثـل وفي القصص، فـالتفرقـة عنـد الغـزالي إجرائية وتفضيلية في آن واحد كما يتجلى الأمر من الثنائيات التي أقام عليها تأويلـه للآيـة : عالم الشهادة / عالم الغيب؛ العالم الجسماني / العالم الروحاني... وباختصار هذا العـالم / ذلـك العالم. ولكن أي العالمين أعم وأشمل ؟ لعله ذلك العالم، إذ : «ليس من شيء في هذا العـالم إلا وهو مثال لشيء من ذلك العالم».[34] وأشياء هذا العالم وأشياء ذلك العالم هي : الروح الحسـاس / المشكـاة؛ الروح الخيـالي / الزجـاجـة؛ الروح العقلي / المصبـاح؛ الروح الفكري / الشجرة؛ الروح القدسي / الزيت الذي يكاد يضيء النار.

موازنات الغزالي هذه إن في صياغتها أو في مضمونها كانت أصعب منالا من أن يدركهـا المخاطبون بالآية أثناء فترات الإسلام الأولى والفترات اللاحقـة. وإنمـا يمكن أن يفهمهـا أهل النظر من الفلاسفـة الـذين يتحـدثون عن الإدراك ومراتبهِ ودرجـات المعرفـة. تـأويل الغزالي نتيجـة لمعرفتـه المستـوعبـة لعلـوم عصره المختلفـة ومـؤثر على مرجعيتـه العلميـة ومعتقـداتـه الفلـفية والصوفية والسياسية، ولم يتخذ الآية إلا ذريعة لعرضهـا وتبيـانهـا، وبفعلـه هـذا انتزع الآية من سياقها العام الذي تدولت فيه، ذلك السياق الذي لم يكن على علم كـاف بـالمعـارف الذي اشتمل عليها تأويله، كما اجتثها من مساقهـا الخطـابي العـام الـذي يمكن أن تفسر على ضوئه. **تأويل الغزالي غير تاريخاني ولكنه تاريخي محض.**

لعل الـزمخشري[35] يمثـل النمـوذج المعـاكس للغـزالي، فقـد تـأول مفردات الآيـة مثـل المشكاة والزجاجـة والمصبـاح والزيت بـدلالاتهـا المعهودة، في الإطـار الثقـافي والإجتمـاعي والحضاري أيام بـدايـة تـداول الخطـاب القرآني، وبعقلانيـة مـدركـة لفحوى الخطـاب القرآني الموجه لأناس كانوا يعيشون في أطر ثقافية معينة.

نكتفي بهذه الأمثلة التـأويليـة التي يجـد القـارئ امتـداداتهـا في العصر الحـاضر ونقـدم الخلاصات التالية :

34) الغزالي، ما ذكر، ص 65.
35) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقـاويل في وجوه التـأويل. المجلـد الثـالث، دار المعرفـة. لبنـان. ص 64.

□ إن أغلب المؤولين يجمعون بين المعنى اللغوي الظاهر وبين المعنى الرمزي الباطن ما عدا بعض الفئات المتطرفة. ولكن المعنى الباطن المنقول عمن كان معايشا لفترات الإسلام الأولى أو لما قرب منها يمكن أن يكون له سند في الثقافات السابقة عليه والمعاصرة له، ومن ثمة يكون له بعد إنثربولوجي، وأما ما يعثر عليه من تأويلات شيعية متطرفة وتأويلات صوفية وفلسفية و«علموية»، فإنها ليست إلا إجتثاثا للآية من سياقها.

□ إن التأويل اعتراه ما يصيب كل ظاهرة إنسانية تاريخية نامية، فقد تجذر في التاريخ الثقافي والحضاري والسياسي فعكس هموم الجماعة التي كان يعيش المؤول بين ظهرانيها مهما كانت تلك الهموم.

4. 1. 2. 3. **مقاييس**

□ إن التيار «العقلاني» حاول أن يضع مقاييس تأويلية تَحُدُّ من الانسياق مع الهوى مثلما يجد المهتم في كتب أصول الفقه ولدى بعض الفلاسفة.[36] وأهمها في نظرنا هي :

□ **الطبيعة البشرية** : ونعني به ما يقولون من أن الشريعة جاءت لحفظ الضروريات الخمس الموجودة في كل ملة، وهي المحافظة على النفس والنسل والمال والعقل والدين. ولا شك في كونية هذه الضروريات لأن مكونات الجنس البشري واحدة وإن اختلفت الظرفيات التي يعيش فيها والتسميات التي يمنحها إياها. وعلى هذا، فإن كل نص أو خطاب يحتوي عليها جميعها أو على بعضها، ومن ثمة، فإن على الباحث أن يتوجه للبحث عنها وأن يلتمس تخريجات ملائمة لما يظهر أنه قد يناقضها.

□ **مراعاة المقاصد** : إن أي نص ليس إلا مجذرا الدعوة للمحافظة على ما تتقوم به الطبيعة البشرية وإن يجيء بطرق تعبيرية مختلفة وأساليب متنوعة، سواء أكانت حظّاً أو تحريضا أو نهيا أو زجرا أو استدراجا أو تأميلا. وقد أفاض الأصوليون في تبيان مقاصد الشريعة وأساليب التعبير عنها. ولعل ما سهل مهمة الأصوليين لإدراك المقاصد هي كونيتها وكون مبلغ الرسالة المتضمنة للمقاصد هو المؤول الأول لما نثر وأذاع بين الناس فنقل عنه أصحابه إلى تابعيهم وهؤلاء إلى تابعيهم...

□ **المساق** : ويقصد به ما يسبق ما هو موضع تأويل وما يتلوه. وهناك عدة نصوص أصولية تلح على دور المساق في الفهم وفي التأويل. ويكفي الاستشهاد بما ورد لدى الشاطبي، يقول : «المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهذا معلوم في

36) ابن رشد مثلا في كتاب : **مناهج الأدلة في عقائد الملة**، القاهرة، 1964، القاهرة، مصر.

علم المعاني والبيان، فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم هو الالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها، فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف».[37] يلح هذا القول على مفهوم **العلاقة** بين مفاهيم النص وجمله وفقراته وعلى **الدور** الذي يمنح للمفهوم ضمن **بنية كلية**.

□ **السياق :** عملية التواصل تحصل بنجاح إذا اجتمعت لها ثلاثة أركان أساسية هي المتكلم والمخاطب ومراعاة المقتضيات المختلفة وهي الطبيعة البشرية ومتطلباتها الفيزيولوجية والنفسية والعقلية. والخطاب القرآني عكس كل مظاهر الحياة العربية فثبت بعضها وغير بعضا منها، وقد أدرك بعض الأصوليين هذا البعد، إذ نجد الشاطبي يكثر الإلحاح على تأويل القرآن بما كان «معلوما عند الصحابة ومن بعدهم»[38] لأنهم كانوا «أعلم العلماء بمقاصده وبواطنه».[39] على أن كثيرا من المؤولين قدماء ومحدثين لم يراعوا السياق الذي تُدُوولَ فيه القرآن وإنما فرضوا سياقهم عليه فحملوه ما لا يحتمل فجاءوا بهذيان كثير.

□ **رفض التناقض :** إن كل ما وضعه الأصوليون من قواعد للبناء عليها، وهي مراعاة المقاصد، والأدلة الشرعية لا تنافي المقاصد وتأتي حسب قضايا العقول، ومن اعتبارات لغوية وتاريخية، يقصد منه مبدأ عدم التناقض. فإذا ما ظهر بادئ الرأي أن هناك أدلة قطعية معارضة لأدلة قطعية فإنهم كانوا يجتهدون في التوفيق بينها والجمع بين معانيها ودلالاتها. ولحل هذا الإشكال وضعت مفاهيم مثل حمل المطلق على المقيد والعموم والخصوص والمنطوق والمفهوم والظاهر والباطن والجمع بين الأدلة والترجيح والناسخ والمنسوخ... وبناء على هذه القواعد والضوابط والمفاهيم صار المتن القرآني الذي بلغ في سنوات طويلة وفي سياقات مختلفة وفي صياغات متنوعة لأناس متعددي الأهليات والأهواء بمثابة كلمة واحدة، لها معنى أصلي، ومعنى أو معان تابعة تعزز المعنى الأصلي ولا تلغيه.

يتبين مما تقدم أن التأويل القديم في مجاليه غير الإسلامي والإسلامي توزعته ثلاثة تيارات أساسية : حرفية ومعتدلة ومتطرفة. وقد فرض الاتجاه المعتدل نفسه لعقلانيته

37) الشاطبي، **الموافقات** (ج : 3، ص 413).
38) الشاطبي، ما ذكر (ج : 3، ص 384).
39) نفس الشيء.

واجتهاده لوضع مقاييس تأويلية. غير أن أهم ما يجب التنبيه إليه هو أن كثيرا من خلفيات التأويل القديم وتياراته تسربت إلى التأويل الحديث والمعاصر.

### 4. 2. التأويل الحديث

لذلك سنحاول أن نقدم خلاصة تركيبية لآراء المؤولين المحدثين مصنفينها إلى تيارات أساسية متجنبين التفاصيل ومحيلين على المراجع.

### 4. 2. 1. التيار الانثروبولوجي والسميائي

قد يكون من المجحف، في عدة أسطر، الحديث عن الاتجاهات الإنثروبولوجية والسيميائية المتعددة، ولكن ما يشفع لنا هو ما نتوخاه من أهداف، ومن أهدافنا أن نؤكد أن هذه الاتجاهات حافظت على الرهان الفلسفي القديم وهو أن المعنى الباطن أهم من الظاهر، وعلى أطروحة تقسيم معنى النص إلى ظاهر وباطن. لهذا نجد فيها هذه القسمة الثنائية : المعنى الظاهر / المعنى الباطن... أو تحت أسماء وشعارات أخرى : المعنى الظاهر / المعنى العميق؛ المعنى البارز / المعنى الأساسي؛ التشاكل المعطى / التشاكل المبني؛ التشاكل الظاهر / التشاكل العميق.[40] بل إن هذه القسمة الثنائية تحولت إلى ما يسمى بـ «تعدد المعاني». هذه التعددية هي التي أقام عليها «راستيي» أطروحته التالية، وهي أنه : «يستبدل بنظرية المعنيين التراتبيين مسبقا نظرية التشاكلات المتعددة التي ليست خاضعة لتراتبية فلسفية»،[41] ومعنى هذا أنه يرفض هيمنة مرجعية ما، سواء أكانت دينية أم طبيعية أم إنسانية، وبطبيعة الحال، فإن هذا لا يعني أن ليس هناك مرجعية على الإطلاق، وإنما يقصد إلى أنها يجب أن تستخلص من التحليل لا أن تكون مسبقة، فالتحليل هو الذي يفرض مرجعا - موضوعا معينا معبرا عنه بتشاكلات لغوية.

هذه التشاكلات المستخلصة من النصوص الأدبية ليست على مستوى واحد من الحضور والبروز والشفافية. فهناك أنواع منها :[42] تشاكلات منصوص عليها معجميا، وتشاكلات ليست معطاة معجميا بصفة كلية ولكنها معطاة جزئيا، وتشاكلات مبنية بناء؛ على أساس هذه النمذجة يرفض «راستيي» نظرية المعنى المزدوج لاختزالها وتفضيلها المعنى الظاهر على

(40) F. Rastier, (1987), ch. VIII, la Pluralité des sens pp, pp. 167-212.
(41) Idem, p. 175.
(42) Idem, p. 185.

البـاطن ولكن لا ليقول بمعنى وحيـد وإنمـا بتعـدد المعـاني المستخلصـة بـالتـأويـل، على أن «راستيي» لم يطلق العنان للمؤول ليقرأ النص كيفما اتفق. ولكنه نبه في غيرمـا موضع إلى أن التأويل القائم على التشاكل مقيد بالنظام الوظيفي للغة الذي يقدم مؤشرات تأويلية كالتشبيـه والاستعـارة والترادف والاشتراك والتمثيـل والكنـايـة وتحصيـل الحـاصـل والتنـاقض، كمـا أنـه مشروط بملاءمة الأعراف الاجتماعية والشروط التداولية. التأويل، لدى «راستيي» خـاضع لقيود عاصمة من الهذيان واللغو.

## 4. 2. 2. التيار التفكيكي

بيـد أن هـذه القيود التي وضعهـا الاتجـاه السيميـائي وغيره نظر إليهـا بغير اكتراث مـا يدعى بالتيارالتفكيكي المعتمـد على أسس فلسفيـة رافضـة للثنـائيـات القـديمـة، وعلى مفـاهيم سوفسطائية وتراث قبالي وفلسفة عـدميـة.[43] ومنطلقـه الأسـاسي : «أن كل نص لا يقبل أو لا يحتوي تأويلات مختلفة فقط، ولكنه يقبل تـأويلات متنـاقضـة يلغي بعضهـا بعضـا».[44] وقـد تفرع عن هذا المبدأ العام عدة تعاليم يمكن إجمالها فيما يلي :[45]

□ يجب أن يهدم النص حتى يتهاوى نسيجه التعبيري.

□ أن النص لا يتحدث عن خارجه (مرجعه)، بل إنه لا يتحدث عن نفسه وإنما تجربتنا في القراءة هي التي تحدثنا عنه.

□ أن النص يمكن أن يقرأ بتجـاوز لمعنـاه التواضعي والاصطلاحي، وهـذه القراءة هي نوع من اللعب الحر. وعلى هذا الأسـاس، فإن تأويلات النص وتعدداتها متعلقة أساسا بمؤهلات القارئ، فالنص بمثابة بصلة ضخمة لا ينتهي تقشيرها، وإن السـياق العام ومساق النص لا أهمية لهما في التأويل، لأن المقصود ليس الوصول إلى حقيقة ما يتحـدث عنـه النص وإنمـا الهـدف تحقيق المتعة، ولذلك فإنه لا اعتبار للتأويلات الأخرى التي ليست إلا إركامـات ممنوحـة من قبل النقاد للنص ليلائموا بينه وبين قيمهم.

تلك هي خلفيات التفكيكيين، وعلى رأسهم «دريدا» و«بارط» في أعمـالـه الأخيرة، وهي خلفيـات تستقي من تيـارات فلسفيـة تهـدف إلى تحطيم البنيـات العتيقـة بمختلف أشكـالهـا

(43) Esa Itkonen, « A Critique of Post-Structuralst' conception of Language », Semiotica 71-3/4 (1988) 305-320.
(44) Idem, p. 315.
(45) Idem, p. 316-317.

وأنواعها، وإلى تفضيل الشكل، وإلى الأخذ بنسبية مطلقة قد تصل إلى العدمية. وعليه، فإن «التأويل هذيان محموم كهذيان الفصاميين أو الفارين من حرب مدمرة».(46) إن هذا الاتجاه واسع الإنتشار في كل أصقاع الدنيا. فقد تبنيت أطروحاته الفلسفية وطبقت تحليلاته اللغوية ولكنه يخضع الآن لتحليلات دقيقة كشفت خلفياته واستراتيجيته وأبعادها بل وخطورتها على الفكر «العقلاني الناشئ». ومع ذلك، فقد وظفنا بعض أطروحاته الإيجابية مع الإحتياط، في بعض أعمالنا(47) السابقة وفي هذا العمل.

### 4. 2. 3. التأويلية الفلسفية

إذا كان هذا الإتجاه يتبنى نسبية مفرطة مغالية معتمدة على خلفية فلسفية قديمة وحديثة ومعاصرة، فإن من بين مصادرها الأساسية التأويلية الألمانية التي ازدهرت في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين ضمن طروحات فلسفية نابعة من إبستمية هذين القرنين. ومن روادها «هايدكّر» و«هسرل» و«كَدامير» و«هابرماس» و«بول ركور» وغيرهم. ولا نسعى في هذا المجال إلا إلى تقديم بعض الآراء الأساسية التي تسهم في إضاءة المشكل الذي نبحث فيه،وهو حدود التأويل، وفي إعانتنا لصياغة حد أدنى من المقاييس التي تمنع من التيه في فضاء التأويل الشاسع. وأما عرض هذه الفلسفة التأويلية بتفصيل فذلك للمختصين.(48)

إن التأويلية الفلسفية تتجاوز إشكالية النص إلى محاولة فهم الإنسان وأوضاعه وإمكانية تجربته وإلى التفكير في أزمة العلوم الإنسانية وأسسها بل وفي التفكير في التأويلية الفلسفية نفسها، فهي إذن ليست مجرد آراء تأويلية أو نقدية لنصوص لغوية أدبية أو غير أدبية، وإنما هي فلسفة ذات نظرة شمولية إلى كل ما في الكون. ولذلك نجد فلاسفتها يحتلون أماكن هامة في كتب فلسفة العلم والإبستمولوجيا.(49) وباعتبار أن التأويل أو النقد ليس إلا عنصرا

(46) Idem. p.316-317

47) تحليل قصيدة ابن عبدون في كتاب : **تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص**. وقد فاتت هذه الخلفية بعض القراء المحترمين.

(48) Mario J. Valdés. (1987). Phenomenological Hermeneutics and The Study of litterature. University of Toronto Press.
David Couzens Hoy. (1982). The critical circle, Litterature, History and Philosophical Hermeneutics. University, of California Press.

(49) Mary Hess. (1980). Revolutions and Reconstructions in the philosophy of Science. Esp. 9 Habermans, Consensus theory of Truth. pp. 206-231. Harvester Press limited.

من البنية الشاملة لعصر من العصور فإن المفاهيم الموظفة في التأويل من هذه الفلسفة هي نفسها التي توجد في حقول معرفية مختلفة. وأهم هذه المفاهيم التي تحتل مكانا ممتازا في التأويل وفي النقد الأدبي هي :

□ **التاريخانية** « Historicity ». ومعنى هذا أن ظواهر الكون ومنها الإنسان تاريخانية وليست جواهر ثابتة متعالية عن ماجريات الأحداث وفضاءاتها، والإنسان المؤول مشروط بظروفه الزمانية والمكانية وبمعرفته السابقة أي أنه متأثر بماضيه وحاضره. بناء على هذه الشرطية، فإنه حينما يتعامل مع نص يكون مسيرا بها، فالمؤول و / أو الناقد لا يذهب إلى النص صفحة بيضاء لا يملك قطميراً من المسبقات وإنما يطرق بابه بكل ما يملك من عتاد، وَلِكُلٍّ عتاده وقوته وتجاربه الخاصة وأوضاعه التاريخية، ولذلك لا مناص من الاختلاف بين المؤولين. وقد يكون هذا الاختلاف جذريا عاكسا لتاريخانية جذرية، وقد يتشابه أهل عصر ومكان وثقافة معينة في بعض الوجوه ويختلفون في بعض الجهات فيكون هناك أخذ بتاريخانية معتدلة.

□ **التقليدية** : هذه التاريخانية المعتدلة تغلبت على التاريخانية الجذرية التي تؤدي إلى النسبية المطلقة أو إلى التشكيكية بل وإلى العدمية. ولذلك حاول بعض فلاسفة التأويلية مثل «كَادامير» أن يبرزوا ما تحتويه هذه الفلسفة من بذور إطلاقية، فالكائن الإنساني تاريخاني، وله معرفة تاريخية، ولكن جوهره من حيث هو إنسان خاضع لتطور ذاتي أو عرضي كما أن جوهر التاريخ، من حيث إنه تطور وصيرورة لا مجرد ذرات وقطائع لا صلة بينها، يفترض وجود استمرارية. وتجسيدا لهذه التضمنات الفلسفية وضع مفهوم التقليد لما له من دور في تشريط المؤول و / أو الناقد وفي جعله يجمع بين النظير والنظير، وفي تعزيز التقاليد الأدبية وأشكالها وأنواعها بعكس آراء ما بعد البنيوية.

□ **التفاعلية** : إذا ما تأمل القارئ تركيز التأويلية الفلسفية على الانسان باعتباره قيمة فردية، وعلى التقليد باعتباره ضامنا للاستقرار والأصالة والخصوصية فإنه يدرك سر إلحاحها على العلاقة بين النص والقارئ وعلى التفاعل بينهما، فالمؤول و / أو الناقد يأتي إلى النص لفهمه وتأويله و / أو نقده في وضع تاريخي وثقافي، والنص يأتي إلى الوجود مزودا بملامح لغوية وخصائص شكلية مشتركة تنميه إلى جنس خطابي معين. فإذا ما هجم المؤول و / أو الناقد على النص يريد أن يعبث به كيفما يريد ويرضى فإن شخصية النص تَكُفُّ من جماحه وغلوائه وتردعه، وحينئذ ينشب تفاعل بينهما يؤدي إلى عملية تأويلية مقبولة وراجحة.

لعل هذه هي المفاهيم الأساسية لنظرية التأويلية الفلسفية، وهي ما اعتمدت عليه نظريات التلقي وما يسمى بالتأويلية الظاهراتية. فآراء «كَادامير» المتأثرة بفلسفة «هايديكَر» تركت آثارها في «أيْـزْ» و«يوس» اللذين أسسا نظرية التلقي في جامعة «كوسطنس» بألمانيا. على أن «أيْـزْ» يؤكد على العلاقة بين النص والقارئ، يقول : «إن نظرية الفن الظاهراتية تؤكد على الفكرة التي ترى أنه يجب أن يؤخذ في الحسبان ليس النص الواقعي فحسب باعتباره فعلا أدبيا وإنما يجب أن يؤخذ كذلك بالتساوي الفعل المتضمن في الاستجابة للنص».[50] وهذا بعكس «يوس» الذي يركز على علاقة النص بالمجتمع.

هذه التأويلية الفلسفية أفرزت إبنة تحاول أن تكون ذات ملامح خاصة، وهي ما يدعى بـ «التأويلية الفينومينولوجية»[51] التي تحاول أن تهتم بما قبل تشكل النص فإلى مستوى تشكله وتنظيمه ثم إلى إعادة تشكيله من قبل المتلقي، وبمعنى آخر، فإن عملية التأويل و / أو النقد تعتمد على أركان ثلاثة، وهي : التاريخية والخصائص الشكلية وعملية القراءة. وبهذه الثلاثية يمكن التوفيق بين الأطروحة المقصدية المراعية للمؤلف وبين نظرية النص المطلق (البنيوية) وبين النظرية الذاتية المطلقة (التفكيكية)، وتبعا لهذه العملية التوليفية قدمت التأويلية الفينومينولوجية مبادئ سبعة اعتمدتها في تحديد النص. ويمكن أن تتلخص تلك المبادئ في ثلاثة محاور أساسية، وهي : **القارئ وتجربته** : الامتلاك. **والنص** : ومعنى النص وتعاليه وشكله وعدم الإحاطة بمعناه. **وما قبل النص** : المؤلف والنص وشروط الإنتاج. وهذه المبادئ السبعة توفق بين النسبي والمطلق : التاريخ والمتعالي الميتافيزيقي، والمعنى الوحيد والمعاني المتعددة وقدرة المتلقي على الفهم والتأويل وعجزه.

### 4. 2. 4. أطروحة المقصدية

تنطلق النظرية التفكيكية من لا محدودية المعاني التي يمكن أن تمنح للنص، وتذهب كثير من الاتجاهات التأويلية الفلسفية في نفس الطريق مما أشاع نسبة غالية لا أدرية أحيانا ومعتدلة أحيانا أخرى. ولهذا تجردت كثير من الاقتراحات النظرية للحد من النسبية ولتأويل النصوص على أسس موضوعية. وهذه الاقتراحات يمكن إجمالها تحت نظرية واحدة تدعى : «أطروحة المقصدية». يعثر المهتم على مفهوم المقصدية والمقصد لدى بعض الإتجاهات

(50) Mario J. Valdes, (1987). p. 22.
(51) Idem. 22.

السيميائية (پورس وكْريماص)، وعند التداولية بمختلف أنواعها (العامة والخاصة)، ولدى فلاسفة اللغة (أو ستين وسورل...)، على أن ما يهمنا نحن هو أطروحة المقصدية لدى التأويلية الفلسفية. وسنشير فقط إلى عمل شخصيتين بارزتين في هذا المجال هما «هرش» وأعماله و«يوهل» وأعماله.

يفترض «هرش» ما يلي : أن معرفة مقاصد المؤلف هي التي تحدد معنى النص لأن المقاصد هي «العرف المميز الملائم»، وعليه، فإن بذل أي مجهود لمعرفة مقاصد المؤلف هو خطوة في سبيل الوصول إلى تأويل موضوعي يحد من «باب التأويلات». وتتجلى مقاصد المؤلف في قواعد اللغة التي يسميها «مبدأ الاشتراك» « Principle of Sharability »، فالمقاصد والقواعد المشتركة تنحي فرضية التأويل القائم على «الإجماع العام» الذي يقول به بعض فلاسفة التأويل مثل «هابرماس»، لأن مثل هذا الإجماع قلما يحصل من قبل القراء. هذه الفرضية يجعلها موضع مناقشة إن لم يكن موضع رفض تعدد التأويلات لنص معين في زمن واحد من قبل شخص واحد أو في أزمان ومن قبل أشخاص. إن هذا الواقع لم يغب عن ذهن «هرش» وهو يضع خطاطة نظريته. لذلك فقد وضع تفرقة بين المعنى والدلالة، ف «المعنى هو ما يمثله نص مّا، ما يعنيه المؤلف باستعماله لمتوالية من الأدلة الخاصة أي المعنى ما تمثله الأدلة. وأما الدلالة فتعني العلاقة بين المعنى والشخص أو المفهوم أو الوضع أو أي شيء يمكن تخيله»،[52] والمعنى ثابت غير متغير لأن مقاصد المؤلف التي صدر عنها المعنى معطاة بكيفية نهائية. أما المتغير فهو الدلالة التي يمنحها كل مؤول للنص بحسب مقاصده ومقصديته. وبهذا الثبات الذي يضمن الاستمرارية والاشتراك والتغير الذي يراعي مختلف السياقات يمكن التحدث عن صحة التأويل The Validity of interpretation، فالمعنى هو موضوع الفهم والتأويل والدلالة هي موضوع الحكم والنقد. ومهما اختلفت التأويلات فإنها تكون غير متناقضة لأنها معتمدة على أرض معنوية مشتركة قابلة لإعادة الانتاج. تلك هي المقاصد.

إن هذه الأطروحة القصدية المبالغة في تعظيم دور الوعي والإرادة في إنتاج المعنى ناقشها كثير من فلاسفة التأويل وخففوا من غلوائها. ولعل أهم من يمثل هذا الإتجاه هو «يوهل» في كتابه : **«التأويل، محاولة في فلسفة النقد الأدبي»**. فقد عدد فيه محددات التأويل وإن جعل مرتكزها وعمدتها هي المقاصد الواعية واللاّواعية، وتجنب تضحية «هرش»

(52) P.D. Juhl, (1980), Interpretation – AN Essay in the Philosophy of literrary criticism. Princetion University Press. p. 27.
Divid Couzens Hoy, (1982).

بخصوصية الموضوع الأدبي لصالح وضعية جاعلة من مقاصد المؤلف وحدها «عرفا مميزا ملائما».[53] وبناء على هذا، فإنه يدافع عن أن مقاصد المؤلف المحددة منطقيا لتأويلات ممكنة لسانيا لنص معين صحيحة، وأن الادعاء بأن معنى النص هو على الأقل إدعاء حول إستعمال المؤلف للكلمات.[54] فإذا ما احتملت بعض الكلمات عدة معان فإن مقاصد المؤلف ترجح أحدها.[55] وللبرهنة على حضور مقاصد المؤلف فإنه اختار ظاهرتين اثنتين : الإلماع أو الاقتباس أو الإشارة والسخرية. وإذا كانت مقاصد المؤلف أساسية فإنها غير كافية وحدها. ولذلك، فإنها تعضد بمقاييس أخرى من مثل «الخصائص النصية» بما تضمنه من انسجام وتعقيد، والمؤشرات السياقية التي تلفظت فيها الجملة. ومع هذا، فإن مقاصد المؤلف تتجاوز قواعد اللغة وإلزامات الجنس الأدبي وعلى دور السياق فهو اعتماد ورجوع إلى مقاصد المؤلف الضمنية. مقاصد المؤلف سابقة على النص وأساسه، ولكن ينبغي أن ينظر إليها باعتبارين : ما هو مصرح به منها أو تقرير عليها، وهذا قد يؤخذ به كما أنه يمكن أن يرفض إذ قد يكون للتعمية من قبل المؤلف لتوجيه المؤول في طريق غير سليم. فالمقاصد الواعية وحدها، إذن، قد تكون مضللة وغير كافية، فإذا ما اقتصر عليها وحدها فقد يكون في ذلك رجوع إلى المنهاجية البيوغرافية التقليدية. وأما ما هو غير مصرح به منها فيجب الاجتهاد في الكشف عنه. وإذا ما استغني عن المقاصد بشقيها فإنه رجوع إلى المنهاجية البنيوية المُنْغَلقة.

نظرية المقصدية وسط بين طرفين متضادين : التأويلات اللاّ متناهية التي قد تكون متناقضة والتأويل الحرفي الوحيد. إذ هي تنطلق من ثبات المعنى لثبات مقاصد المؤلف، ومنْ تغيرات التأويل الخاضع لإلزامات عصر المؤلف والسياق الذي يعيش فيه.

### 4. 2. 5. نظريات تركيبية

وقد حاول بعض الباحثين المعاصرون تفكيك الاتجاهات التأويلية لصياغة تركيب ملائم. ومنهم «أمبرتو إيكو» من السيمائيين وأصحاب نظرية تحليل الخطاب. ولنقدم الخطوط الرئيسية لكل من الاتجاهين.

(53) P.D. Juhl, op. cit. p. 23.
(54) Idem, p. 52-65.
(55) Idem, p. 58.

يرصد «أمبرتو إيكو» الاتجاهات التأويلية عبر تطورها التاريخي في كتابه «الدلائلية وفلسفة اللغة»[56] وخصوصا فصله المتعلق بالرمز. فقد جعل هذا الفصل امتدادا لنهاية الفصل السابق، وهو الاستعارة، أي فقرته المعنونة بـ «من الاستعارة إلى التأويل الرمزي».[57] وقد ارتكز «أمبرتو إيكو» على التفرقة التي أتى بها «وينريخ»، وهي : الاستعارة الصغيرة هي استعارة الجملة واستعارة السياق هي مجموع الاستعارات الواردة في النص المكونة لخطاب تمثيلي. وأما استعارة النص فهي تلك القاعدة الإيديولوجية لمجتمع من المجتمعات المدلول عليها بالاستعارة السياقية.

لعل هذه القسمة الثلاثية هي التي أوحت إلى «أمبرتو إيكو» بالتفرقة بين المفاهيم الثلاثة الأساسية التي هي : الاستعارة والتمثيل والرمز؛ فالاستعارة ـ عنده ـ ما يخالف الحقيقة ولكن عندما تؤول يستقيم المعنى، أو هي ما يخرق قواعد المحادثة،[58] والتمثيل قابل للتأويل الحرفي، ولكن هذا التأويل مما لا يقبله الحس السليم والمعرفة الموسوعية، ولذلك فإنه يؤول مجازيا لاستخراج معانيه الباطنية باعتماد على الموجهات التي يقدمها نص التمثيل. وأما الرمز فهو ما يوحي بأن معنى ما موجود حقا في النص، ولكن الكيفية التي يقدم فيها تجعله محتملا لتأويلات عديدة لأنها لا تعين بمؤشرات على توجه التأويل أو التأويلات.

بناء على هذه التفرقة يَتَبَنّى «أمبرتو إيكو» مفهوم الرمز، وأما نحن فسنأخذ بمفهوم التمثيل، مع إقرارنا بأن هناك تداخلا بين المفهومين، إذا الرمز هو مادة التمثيل أو بنيته التحتية العميقة. ذلك أن «إحدى خصائص الرمز إعادة إنتاج نفسه في أزمنة مختلفة بنفس السمات».[59] وإخلاصا من «أمبرتو إيكو» لإستراتيجيته التي سار عليها في كتابه المذكور استعرض تعريفات مختلفة باختلاف المنطلقات. وتتبع ذلك يبعدنا عن الإشكال الذي نريد الإجابة عنه ولذلك نسارع فنقول : إن هناك إجماعا حول وجود معنى أول ومعنى ثان سواء أكان هذا المعنى الثاني ناتجا عن الاستدلال السياقي أم كان مستندا على قواعد بلاغية كالصور الحلمية وأنواع المجاز أو على خلق جمالي. وعلى هذا، فإن جوهر الإشكال برهانه وطرحه الفلسفي بقي هو هو أي أن هناك معنى ظاهرا ومعنى باطنا مفضلا على الظاهر.

(56) Umberto Exo, (198 ), Ch. 4 Symbols, pp. 130-162.
(57) Idem, 3.11, pp. 124-127.

(58) يقصد قواعد المحادثة لدى «كرايس» المعروفة.

(59) U. Eco, op. cit. p. 147.

على أن قيمة مساهمة «أمبرتوإيكو» تكمن في موقفه من التأويل ومن القراءات المتعددة. وموقفه نابع من محاولته التوفيقية بين دلائلية «بورس» والنظرية السيميائية، ذات الأصل «السوسوري» ونظريات تحليل الخطاب. هكذا يجد القارئ «أمبرتوإيكو» قائلا بالقراءة المتعددة والدلالة اللا منتهية والقارئ النموذجي والتشاكل، ولكنه مع هذا لا يسير في طريق التفكيكيين القائلين بلا تناهي التأويل كما يرفض قولة «بول ڤاليري» : «ليس هناك معنى حقيقي في نص ما»، إنه يرفض، إذن، التأويل القبالي الذي يجعل النص يحتمل كل تأويل ولا يرضى عن الاتجاه التفكيكي الذي يتزعمه «دريدا»، إذ إن «دريدا» في نظر «إيكو» قبالي متطرف،[60] كما أنه لا يأخذ بالتأويل الوحيد الموافق لمقاصد المؤلف.[61]

لا غرابة في أن تختلف إستراتيجية «أمبرتوإيكو» عن التفكيكيين وعن القصديين في آن واحد لأنه تبنى قيودا تأويلية مستمدة من علم النفس المعرفي ومن الذكاء الاصطناعي[62] ومن تحليل الخطاب. فقد وظف مفاهيم الأطر والمدونات والخطاطات، والتمثيل الموسوعي ومدار الحديث. وهو يعي مدى إجرائية هذه المفاهيم وفعاليتها في ضبط التأويل. يقول : «الأطر لا تسمح لنا فقط بتأسيس مدار الحديث وإنما تحدد مساره وغاياته ووجهة النظر التي يتبناها».[63] وعلى هذا، فإن النص ليس هراء وإنما له آليات نموه وانتظامه وليس تأويله سائبا غير خاضع لأية إلزامات، أو هذيانا محموما.

يتضح من هذا أن «أمبرتوإيكو» حاول أن يوظف مفاهيم تعْصِمُ من الذاتية المتطرفة والنسبية اللاّ أدرية مقتفيا سنن محللي الخطاب «الأنجلو ساكسونيين» الذين أسهموا بحظ وافر في وضع بعض القيود التأويلية. ولا نوي تقديم كل المحاور التي تدور عليها كتب «تحليل الخطاب» وإنما سنوضح بعض العناصر التي هي لصيقة بإشكالنا، وأهمها : أن على محلل الخطاب أن يتبنى تناولا دلاليا لدراسة الخطاب، أي التعرف على سياق الكلام وعلى سياق المستمع وزمان الخطاب ومكانه ومساقه.[64] ويمكن توسيع السياق والمساق ليشملا ما يدعى بـ «مبدأ المشابهة»[65] للقيام بمقايسة بين المعرفة القديمة والمعرفة الجديدة لالتماس المماثلة بينهما لتأسيس المعرفة الجديدة وتبريرها. فهذا المبدأ وسيلة لتسديد خطى المؤول و / أو

(60) Idem, p. 154-155.
(61) أنظر فقرة : 4. 2. 4.
(62) أنظر الفصل الثالث.
(63) V. Eco, op. cit., p. 118.
(64) Gillian Brown, Gearge Yule, (1983), p. 35.
(65) Idem, p. 58-67.

المرسل لئلا يتيه. كما أن «مبدأ التأويل المحلي»[66] وسيلة لتعليم «المستمع تجنب بناء سياق جد موسع أكثر مما يتطلبه وصوله إلى تأويل». كلا المبدأين يهدفان إلى تجنيب المؤول الإسقاط والتأويل الحر الذي لا يخضع لقيود ومحددات، كما أنهما قائمان على أساس «فرضية الانسجام التي لا تتيح إلا تأويلا واحدا خاصا فقط ترتبط فيه عناصر الرسالة»[67] عن طريق التفاعل الناتج عن العلاقة بين المتكلم والمخاطب المؤدي إلى تسلسل خطابي محكوم بالمحاذاة الثنائية والأفعال الكلامية والمعرفة الخلفية المستقرة في الذاكرة الإنسانية التي توظف حسب آليات معينة.

### 4. 3. نحو ضوابط تأويلية

يتبين مما تقدم أنه يصح القول التالي : الإنسان حيوان ناطق ومؤول، فإذا كان النطق يهدف فيما يهدف إليه هو ضمان نوع من التواصل فإنه غالباً ما يكون مُلْتَبِساً ومحتملا لعدة تأويلات نظرا لقصور مؤهلات الإنسان في استعمال اللغة الطبيعية أو لتقصيرها أو لقصد التعمية والإلغاز وتحريف الكلام عن مواضعه، كما أن الإنسان المؤول يختلف إدراكه وتتمايز ظروفه ومقاصده. ولعل الرصد الذي قدمناه لبعض الاتجاهات التأويلية يعكس هذا التبلبل. ولذلك يتحتم استنتاج بعض الضوابط التأويلية من خلال تلك الاقتراحات المتضاربة.

#### 4. 3. 1. الطبيعة البشرية

إن ما يدعى بأطروحة المقاصد يمكن أن يسعف في تأويل ملائم مراع للثوابت والمتغيرات، على أن ما يسمى بالمقاصد سنوسعه إلى أن يشمل ما يدعى بالطبيعة البشرية التي يشترك فيها جميع الناس باختلاف أجناسهم وأزمنتهم وأمكنتهم ومستوياتهم الثقافية. وعلى ضوء هذه الفرضية يمكن الزعم أن أي نص أدبي مهما كان الجنس الذي ينتمي إليه يعبر عن تلك الطبيعة، ولكن ما هي هذه الطبيعة البشرية المتحدث عنها ؟ ما مكوناتها ؟ ما حاجاتها الأولية والثانوية ؟.. إلى غير ذلك من الأسئلة التي أجابت عنها علوم أنثروبولوجية وتحليل نفساني وبيولوجيا، وستجيب عنها علوم أخرى بتأكيدها أو نفيها... ولكن ما تثبته بعض الدراسات التجريبية السابقة أن مدار كثير من النصوص الأدبية[68] هو

(66) Idem, p. 59.

(67) Idem, p. 224.

(68) يجب أخذ مفهوم الأدبية بمعناها العام : النص الشعري، والقصصي، والكرامة الصوفية، والمنقبة.

حول : الحيـاة والممـاة والجنـس والغيب أو علائق البشر مع بعضهم أو علائقهم مع الطبيعـه ومع الكون. وإذا ما صح هذا الفرض فإن معنى النص يصبح ثابتا غير متغير كمـا تـدعي أطروحـة المقاصد، وكل النصوص الأدبية تصير مشتركة في ثوابت أو نوى من المعاني لا تعدوها، وإنمـا يختلف المؤلفون في تأويلهم لها بـاعتبـار كل مُؤَلِّفٍ مؤولا. فـالنص الأدبي ليس لـه إلا معنى وحيد مستمد من «شيء» محصور عددا ولكنـه لا يحـاط بمعـانيـه في نفس الوقت، فهو ثـابت من حيث الجوهر وهو متغير من حيث التـأويل، فهو مطلق وهـو نسبي. وقـد يسنـد فرضيتنـا هذه بعض نظريات فلاسفة اللغة وخصوصا نظرياتهم حول الأفعال الكلامية، فالـذين يفترضون ثبات المعنى لثبات المقاصد يطـابقون بين النص الأدبي والأفعـال الكلاميـة، إذ لا تصـدر إلا عن وعي وسبق إصرار، وهي محصورة العدد، وكل نص يقوم عليها. وإذا كـان هـذا سليمـا في النظرية كما صيغت أول الأمر فقد ظهر فيما بعد أن تلفظ الجملة المحتويـة على فعل كلامي تكون مبهمة وغامضة ومحتملة لأي فعل من الأفعال. وقد يرد على هـذه الصعوبـة بـأن معرفـة مقـاصـد المتلفـظ تـوجـه الفعـل الكـلامي نحـو معنى معين، ولكن كيف يمكن ضبــط هــذه المقاصـد ؟ هنـاك ثغرات كثيرة أبـانتهـا الأطروحـة المضـادة للمقـاصـد مثلمـا يعكسهـا مقـال «ويمْسَطْ» و«بوردْسلاي» المعنون بـ : «المغالطة القصديـة» « Intentional Fallacy »،[69] وأعمـال أخرى لكلا البـاحثين، على أن مـا افترضنـاه من وجود ثـوابت إنسـانيـة يخفف كثيرا من وقـع الأطروحة المضادة لِلْمَقْصَدِيَّة.

4. 3. 2. **الخصائص اللغوية**

تذهب النظرية المضـادة للمقصـديـة إلى أن الخصـائص اللغويـة المشتركـة بين فئـة من الناس هي التي تحدد المعنى. إذ من خلال معرفتنا المعجمية والتركيبية والدلاليـة يتوصل إلى ضبط معنى النص، فالخصـائص اللغويـة تؤدى إلى الفهم والتـأويل في استقلال تـام وإستغنـاء مطلق عن البينـات الخـارجيـة لأنهـا مستمـدة من المواضعـات العموميـة لـلاستعمـال[70] ولكن أصحاب نظرية المقاصد التي يمكن أن توصف بالتركيبيـة يعتمـدون على المـادة اللغويـة في الفهم والتأويل، ومع ذلك يرون أنها غير كـافيـة، إذ لابـد «من معرفـة مـا لمعتقـدات المتلفـظ ومواقفـه ومعتقـداتـه وآرائـه وهكـذا دواليـك»،[71] بل إن هـذه الحـالات هي التي تكـون وراء

(69) P.D. Juhl, (1980), pp. 45-52.
(70) Idem. p. 50.
(71) Idem. p. 97.

استعماله للغة بتداعياتها وإيحاءاتها؛ التسليم بمقاصد المؤلف وراء كل متلفظ كلامي وارد ولا مدفع له، واستغلال المكونات اللغوية أمر لا مناص منه. إذ الاقتصار على البينات الراجعة إلى المؤلف يعود إلى المنهاجية البيوغرافية والتحليل النفساني، والاكتفاء باللغوي إنغلاق ضمن النص، فالمقصد يرجح معنى على آخر والاستناد إلى النص أمر ضروري[72] بما يحتويه من إنسجام وتعقيد.

### 4. 3. 3. جنس النص

إن هذا الموقف التوفيقي هو الذي يخفف من غلواء أطروحة المقاصد المطلقة التي تعدم الأجناس الأدبية على أساس أن ما يحددها هو مقاصد المؤلف، إذ لا فرق جنسي أو لغوي بين حدث يومي واقعي وحدث قصصي متخيل، وما يجعل الفرق بينهما هو مقاصد المؤلف.[73] ولكن أطروحة المقاصد المعتدلة تخصص حيزا كبيرا للاعتبارات الجمالية المتوارثة.[74] ويظهر أن أطروحة المقاصد المتطرفة تهيمن عليها التصورات النظرية للجملة المنعزلة، ولا تعير كبير اهتمام للعمل ككل. فإذا ما أخذنا الحدث الذي استشهد به «سورل» وأدخلناه ضمن رواية لاكتسب ذلك الحدث جنس ما وقع فيه. ولو أخذنا حدثا روائيا وأدمجناه ضمن كتاب تاريخ لأصبح تاريخا.

تحديد الهوية شيء ضروري لأنه يساعد على مسار التأويل وانضباطه. إن اختيار الجنس يعضد وجود المقاصد، فهي التي تدفع المؤلف إلى أن يختار جنسا تعبيريا دون آخر، فحينما «نلتمس الانسجام والسياق أو حتى قواعد اللغة، فإننا فعلا نلتمس مقاصد المؤلف».[75]

### 4. 3. 4. السياق

تتدخل مقاصد المؤلف في انتقاء عناصر من السياق العام وتنظر إليها نظرة خاصة، والسياق تدخل فيه الأسس المادية التي قد تسمى «الإيكولوجيا» بما فيها من أعراف اجتماعية وثقافية وشروط تداولية وأسس بيولوجية متفاعلة للعلاقة الوثيقة بين اللغة والثقافة والبيئات الاجتماعية. كل نص أدبي ينتج ضمن محددات معينة وأطر معينة في إطار تلق معين من قبل

(72) Idem, pp. 66-90.
(73) John R. Searke. (1982). Sens et Expression. Minuit. Paris. pp. 101-119.
(74) P.D. Juhl. op. cit., pp. 114-152.
(75) Idem, p. 114.

مرسل ومتلق معينين. ضبط الزمان والمكان والأشخاص وجنس الخطاب عناصر ضرورية للتأويل العادل المنسجم العقلاني لأنها تؤطره وتجذره في أسسه المادية.

### 4. 3. 5. عدم التناقض

إن القول بمقاصد المؤلف لا يتيح للنص إلا تأويلا واحدا ممكنا، ولكن هذه الواحديّة لا ترفض القراءات المتعددة، وإنما تمنع وجود قراءتين متناقضتين. ذلك أن طبيعة العمل الأدبي هي ازدواجية المعنى، ولذلك نجد عدة تَيَّارَاتٍ حاولت أن تصوغ مفاهيم لتفسير هذه الظاهرة، منها مبدأ شبه التضاد « Subcontrary » أو « Synergy » ومبدأ التسامح « Principle of Tolerence » أو « Principle of charity ». كل عمل أدبي، إذن، قابل لقراءتين تبدوان متناقضتين، وما هما كذلك. وإنما إحداهما أصلية أو معطاة وثانيتهما مبنية، أو عدة قراءات تلقى مزيدا من الضوء على معنى النص الأدبي وتغنيه، كما يجد المهتم في القراءات التشاكلية المتعددة، فهي قراءات مناسب بعضها بعضا بطريق المماثلة أو التفارق. ولكن ما لا يقبله معنى العمل الأدبي هي التأويلات اللا متناسبة منطقيا لأنها إذا وجدت تحطم أهم دعامتين يقوم عليهما مفهوم النص هما : الانسجام والتعقيد المنظم.

### 4. 4. خاتمة

يتبين مما قدمناه أن بعض التيارات العقلانية في القديم والحديث سعت جاهدة لصياغة ضوابط للتأويل : دوران النص على ثوابت بشرية ومراعاة المقاصد والسياق والمساق والجنس الأدبي؛ فالأصوليون ركزوا على دور النِّيَّة والقصد في كل فعل تشريعي، وأسس بعضهم علما دعاه مقاصد الشريعة، كما أنهم أخذوا في حسبانهم مساق الكلام وسياقه وتفسير النص بالنص وانسجام الخطاب، وقد عادت المقاصد إلى عنفوان شبابها لدى التأويلية الفلسفية وبعض فلاسفة اللغة والتداوليين، واعتبروا أن لا غنى للمؤول عن مفهوم «القصد» و«المقصدية» لإدراك المعنى الوحيد للنص وتأويله تأويلا ملائما ومنسجما، وراعى المحدثون استعمال النصوص الموازية للمؤلف نفسه رفعا لإبهام النص، وجعلوا شغلهم الشاغل الآن البحث عن ضوابط لانسجام النص.

من خلال هذه الموازنة يمكن أن ينتصب أحد الناس ويقول : إن القدماء سبقوا المحدثين في كل ما يمت إلى التأويل بصلة، ولذلك لا داعي لإعنات النفس للإطلاع على هذه الاتجاهات «المستحدثة»، فالناس في غنى عنها، والتراث جامع مُوعٍ مَانِعٌ. ولكن المؤرخ

التاريخاني لا يملك نفسه دون أن يقهقه ويقول بدوره : إن هذا الإنسان لا تاريخاني ذلك أن التأويل الأصولي يهدف إلى إبداء حقيقة كلام الله الذي هو الظاهر الباطن المحيط بكل شيء، وإلى الدفاع عن شريعته بالتأكيد على الطاعة المطلقة، وإلى الترغيب في الدار الآخرة... وأما التأويل الحديث فهو وليد فلسفة الموت والعدم : موت (...) وموت الإنسان وموت العقل وموت المؤسسات... وهو نتيجة ليبرالية أوروبية وديمقراطية اجتماعية وخلفيات عرقية.. وهو متأثر بالنزعة العلمية المعاصرة التي تشغلها الهيمنة على الكون وعلى الإنسان...

أين، إذن، منطلقات ذلك التأويل من هذا التأويل ؟ أو ليس فيما فعلتم جمع بين الثريا وسهيل ؟ نحن واعون باعتراض التاريخاني ونوافقه. وقد اجتهدنا لتشخيص بعض الضوابط دعما لموقفه، ومع ذلك فإننا نريد منه أن يعالج الأمور باعتدال ويسمح لنا بوضع الخلفيات المختلفة التي وراء التأويلين بين قوسين، وباعتبار تلك الضوابط مبادئ صورية متعالية تتحكم في كل تأويل. فبهذا الإفراغ من المضمون، وبهذا التحرير من الإلزامات الظرفية يمكن بناء جسور للربط بين التأويل القديم والحديث. كما أننا نتوقع أن يقوم «النتشوي» و«الهاديكري» و«الديريدي»... محتجا ومتسائلا : لماذا تضيقون من الحريات... حريات التأويل ؟ أولا تعلمون أننا نعيش الليبرالية السياسية ونظرية التلقي الأدبية وما بعد الحداثة ؟ لا تنزعج يا صاحبنا. إن هذا التضييق لا يخصك وحدك وإنما يضم إليك من لا يكترث بهذه الاتجاهات ولا يعتبرها.

# الفصـــل الخامـــس

## 5. التظهيــــر

### الإشكـــــال

قدمنا أربعة فصول نظرية في هذه الدراسة. وها نحن أولاء الآن نُرْدِفُها بفصل خامس تطبيقي تظهيرا لتلك المفاهيم ووضعا لها على المحك ليطمئن من في قلبه شك بأن هناك ارتباطا بين النظرية والممارسة وليقتنع من كان سليم النية خالص الطوية أن تحليلنا ليس هراء ولا سند له أو قد أسقط على هذا النص البين الواضح إسقاطا. لا، يا أخانا في الله وفي طاعته، إن هذا التحليل وراءه فروض وقواعد ومفاهيم، وهي تُكوِّن جميعها ما يطلق عليها اسم النظرية، وأهم الفروض أننا سنعتبر هذه الترجمة ـ المنقبة مثلا ضرب لتستخلص منه العبرة، شأنها شأن الأمثال القرآنية والحديثية.. و«المزرعة الحيوانية» لـ «أرويل» و«الظاهر الغابر» لـ «بوزفور». ولذلك لن نكتفي بظاهر المعنى وإنما سنبحث عن موازيات باطنية، أي ربط الصلة بين عالمين : هذا العالم / ذلك العالم، إذ : «ليس من شيء في هذا العالم إلا وهو مثال لشيء من ذلك العالم»،[1] كما يرى حجة الإسلام الغزالي رحمه الله. ولكن الغزالي كان لا تأريخيا إذ ربط ظاهر الآية القرآنية الشريفة بعلوم أجنبية مستحدثة لم يكن للعرب والمسلمين علم كبير بها قبل العصر العباسي. وأما نحن فنزعم أننا تأريخيون لأننا عقدنا الصلة بين الترجمة ـ المنقبة وبين ضرورات إنسانية أبدية. وأمَّا القواعد فمنها ما هو عام مثل :

إذا كان النص أدبا      فإنه يحتوي على ما هو ضروري للحياة.

إذا كان النص أدبا      فإن في مضمونه ما يدل على الجنس.

إذا كان النص أدبا      فإن في مضمونه ما يدل على التدين.

*) ترجمه د. جميل نصيف التكريتي. دار توبقال للنشر (الدار البيضاء)، دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد). 1986.

1) أنظر الفصل الرابع : 4. 1. 2. 2.

وأما ما هو خاص :

إذا كان النص منقبة فإنه يتحدث عن بطل.
إذا كان النص منقبة فإنه قد يحتوي على أفعال خارقة.

وأما أهم المفاهيم الموظفة فمنها عام وخاص؛ فالعام هو نظرية التفاعل النصي التي تعتبر المفهوم يكتسب معناه من موقعه ودوره ضمن بنية شمولية، وأما الخاص فهو النظرية التفاعلية الاستعارية التي نظرنا في ضوئها إلى الاستعارة الجُمْليّة فالاستعارة النصية ثم إلى الاستعارة السياقية متدرجين من الصيغة الضعيفة التي نجدها لدى «ماكس بلاك» إلى صيغتها القصوى مثلما نعثر عليه لدى أصحاب العلم المعرفي، فإلى تأويلها المعتمد على الضوابط الواردة في الفصل الرابع.

مقصودنا، إذن، ليس التعرض للمناقب والكرامات ولا سرد المؤلفات فيها كما أنه لا يتوخى أن يحلل مناقب وكرامات متعددة، وإنما سيترك ذلك للجزء الثاني، وإنما هدفنا هو اختبار النظرية المقترحة لنرى ما مدى ملاءمتها لتحليل المناقب والكرامات كما لاءمت الأقاصيص والحكايات. وإذا ما تبين للقارئ نجاعة النظرية المقترحة في الرصد الدقيق لمظهرات النص وفي الكشف عن مضمراته فإنه حينئذ يمكن أن يمارسها على مثل هذه النصوص وعلى غيرها.

ينبغي، قبل أن نلج عالم التحليل، أن نقرأ الترجمة ـ المنقبة المنتقاة من كتاب «التشوف» المتعلقة بأبي زكرياء يحي ابن لا الأذى الرجراجي. تقول :

> «من أهل بلد ونكيلة بوادي شفشاون، قديم الوفاة. وكان قد رحل إلى المشرق رحلته التي حج فيها. وكان عبدا صالحا مجاب الدعوة. حدثوا عنه أنه أخذ ذات يوم منجله لقطع شجر السدر، فبينما هو يقطعه إذ صادف رجل قنفذ فكسرها، فآلمه ذلك. وقال : اسمي يحي بن لا الأذى، فإذا أنا يحي بن الأذى، أوذي خلق الله ! فأخذ القنفذ فربط رجله بجبائر وأدخله في خابية فكان يسقيه الماء ويطعمه التين والزبيب إلى أن انجبر فذهب».[2]

2) ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق الأستاذ أحمد التوفيق، (1404 هـ / 1984 م). ص 85.

### 5. 1. الواقع

فلننظر إلى هذه الترجمة من حيث الواقع أو من حيث معناها الحرفي. وتوضيحا لهذه النظرة فلنفرض أنها جاءت في أحد **كتب التراجم العامة** التي تتحدث عن الملوك والوزراء والقواد والعلماء والفقهاء والصوفية. وفرض مجيئها هذا في كتاب جامع لترجمات متعددة متعلقة بهويات مختلفة يمكن أن يجعل القارئ ينظر إليها على أن دلالاتها واقعية ليس فيها شيء يثير الانتباه ويوتر القارئ. إذ الترجمة ـ «المنقبة» تتحدث عن شخص عاش في مكان محدد، وزمان وإن كان غير معين بالضبط، وحج إلى المشرق كما كان يفعل كثيرون غيره. وكان يدبر أمر معيشته كما كان يدبرها أناس آخرون، فكان يحرث ويحصد ويجمع الحطب. ومن الواقعي جدا أن يصيب فاعل هذه الأشغال، أثناء ممارسته لها، قنفذا أو حنشا أو طيرا أو غير ذلك، كما أنه من الواقعي أيضا أن يأخذ القنفذ لعلاجه أو لأكله.

تتحدث الترجمة إذن، عن شخص يمارس نشاطا في فضاء بدوي فلاحي رعوي. وهي، بحديثها هذا، صادرة عن متكلم ذي مقاصد خاصة إلى مخاطب ذي حاجات متنوعة لتحثه على العمل والرأفة وتحمل المشاق والتضامن والأخوة في ظروف قاسية.

بهذا المعنى الحرفي المستخرج من الترجمة الواردة في كتاب ما من مصنفات التراجم يتيسر للقارئ الحرفي الواقعي أن يضبط المكان الجغرافي الذي عاشت في فضائه الشخصية المترجم بها ويتعرف على نباتاته، وعلى نوع معيشة ساكنيه. وعند الوصول إلى هذا الهدف يضع قلمه وينفض يده ويغادر الترجمة وصاحبها بدون خوض في الماء العكر وتقويل النصوص ما لا تقوله بصريح العبارة.

### 5. 2. العالم الممكن

بيد أننا إذا نظرنا إلى هذه الترجمة باعتبارها واردة في **كتاب مناقب**، فإن الأمر، حينئذ، ينقلب رأسا على عقب. ومن ثمة، فإن المضمون الحرفي الذي جاء به نص الترجمة لن يصبح إلا مؤشرا على مضمون أعمق. وعليه، فإنه يتعين استعمال الوقائع الحرفية الواردة في الترجمة ـ المنقبة لإبراز **موازياتها المضمرة**. وتأسيسا على هذا، فإن الترجمة ـ المنقبة تصير مشبها أو موضوعا أول أو مشبها به يكشف خبايا المشبه، يحتاج إلى مشبه به أو مشبه أو موضوع ثان أو موضوع أول.[3] هذا الموضوع الثاني الذي هو المقصود والأمثل، أي استعمال

3) سيأتي توضيح هذا في : 5. 2. 4.

معطيات الواقع لبناء الممكن والمراد والمبتغى. كما أنه يوجد أحيانا كثيرة في كتب المناقب خارق أو ممكن، ولكن يحتال في معالجته إلى أن يتلاءم مع العالم الواقعي بصنع **موازيات واقعية** له. بيد أن العالم الممكن ـ في هذه الحال ـ مشبه أو مشبه به. إذن، هناك دينامية بين العالم الواقعي والعالم الممكن. إذ يمكن الذهاب من العالم الواقعي لبناء العالم الممكن كما هي الحال التي نحن بصددها، ويمكن الانطلاق من معطيات العالم الممكن لتكييفها مع الواقع، و«تطبيعها» معه كما يوجد في الكرامات الخارقة.

إن الترجمة التي بين أيدينا هي ضمن كتاب في المناقب، وكتب المناقب وجه ثان لكتب التراجم والطبقات. ومعنى هذا أنها تجمع بين الواقع والممكن. فقد تعبر بالواقع، أو تأتي باللاّ واقع أو الممكن. ولكن مهما اختلفت نقطة الانطلاق، فإن الغاية المتوخاة في مثل هذه الكتب هي **عالم الإمكان.**

### 5. 2. 1. نحو نمذجة للمناقب

عالم الإمكان، إذن، في المناقب والكرامات هو قطب الرحى، ولكن علينا أن لا نلتمسه بكل ثمن فنتمحل التخريجات والتأويلات التي تدفعها تاريخية خطاب «المناقب المغربية»، ولكن علينا في الوقت نفسه محاربة الخصوصية المفرطة لئلا تصبح المنهاجية المقترحة إختبارية تجزيئية دون ضفاف نظرية وغير ذات أبعاد كونية.

إن نقل هذه الترجمة ـ المنقبة من التداول الشفوي إلى الكتابة أحدث عليها تغييرات جذرية. هكذا نزعم أن المؤلف أخذ نواة ونماها بحسب تقاليد ثقافته العالمة. النواة هي «رجل صالح بربري»، وكانت تحكى بلسان بربري. وعليه، فإن الترجمة ـ المنقبة التي نقرؤها في «التشوف» هي، على قصرها، تنمية لنواة أقصر، وتحويل لمضمونها انسجاما مع التحول الثقافي والاجتماعي والسياسي الذي كانت تحياه الفترة : فترة التحول السياسي والاجتماعي، وفترة التعريب، وفترة تدوين الشفوي، وفترة تسرب الخطاب الصوفي إلى دواليب الدولة والبيئة الثقافية المحافظة، وفترة تخصيصه بمؤلفات في المحيط المغربي. وبتعبير آخر، فترة بداية تأسيس الخطاب الصوفي والدعوة إلى تبنيه واعتناقه. كما أن نقل الترجمات الصوفية من بين كتب التراجم العامة إلى كتب خاصة تتحدث عن شخصيات متجانسة منحها تقاليد الجنس.[1]

(1) راجع مناقشة الأطروحة المقصدية المتطرفة : 4. 2. 1.

نقل الترجمات ـ المنقبات من الرواية الشفويـة البربريـة إلى الكتـابة العربيـة العـالمـة أعطاها أبعادا جديدة كما أن تجميعها في مصنف منحها هوية خاصة (جنســا). ولكن الكتـابـة لم تفقدها بعض ملامح الشفوية كما أن جنسها لم يفصلهـا نهـائيـا عن الأجنـاس المماثلـة لهـا والمشابهة.

جنس المناقب، إذن، يشترك مع الأنواع السرديـة الأخرى في خصـائص بنيويـة، ولكنـه قد يختلف معها في الوظائف المراد إنجازها. ولكن المناقب أو الكرامات، كـالشـأن في قصص الخيال العلمي وما أشبهه، يمكن أن تصنف إلى عدة أنماط بحسب درجة انزياحها عن الواقع.

□ **النمط الأول**، وهو الذي يعبر عن الواقع بكل وضوح، بل يكـاد القـارئ العـادي لا يلاحظ فيه انحرافا عن الواقع. وربما يمكن التمثيل له بترجمة الفقيـه أبي موسى بن عيسى بن أبي حـاج الفـاسي،[5] كمـا يمكن ضرب المثـل لـه بتراجم الفقهـاء الـواردة في كتب المنـاقب. ولكن القارئ المؤول يمكن أن يمنح لها درجة ما من الانزياحة.

□ **النمط الثاني**، يمكن أن تعكسه الترجمة التي بين أيدينـا، إذ يستطيع القـارئ أن يتثبت من وادي شيشاوة، ومن طبيعة النباتات التي تنمو في تلك المنطقة، ومن بينها السـدر، ومن وجود القنفذ. ولكن في الترجمـة ـ المنقبـة مـا يوجهـا إلى أن تؤول، وهو «وكـان عبـدا صالحا مجاب الدعوة». وكذا عنايته بالقنفذ بخلاف بعض الأوسـاط البدوية التي تتصيده لتجعل منـه أكلاطيبـا ولـذيـذا، أو تتطير بـه. فهـذا الانزيـاح التـديني والعرفي من قبل الصوفي فتح الباب على مصراعيه لقراءة تأويلية.

□ **النمـط الثـالث**، وهو الـذي يجـد فيـه القـارئ انزيـاحـا كبيرا عن الواقـع الحرفي، ويمكن أن يتخذ نموذجا لـه الترجمـة الثـالثـة في كتـاب «التشوف» الخـاصـة بـأبي عبـد اللـه الرجراجي.[6] ففيها رؤية النبي في المنام، والأمر بزيارته، وعلم المترجم له بالغيب، وركوبـه على قوس قزح... كمـا يمكن أن يـدخل ضمنـه كـل مـا يتعلـق بشفـاء المرضى، وطي الأرض وحصول البركة في الطعـام، وتكليم الأموات والجمـادات... أي كل مـا يخرق قوانين الطبيعـة المتعارف عليها.

كل الترجمات ـ المناقب، مهما اختلفت درجة رتباطها بالواقع أو مفارقتها له، قابلـة لأن تؤول لتستخرج منها دلالات باطنية. وسبب ذلـك أنهـا جـاءت ضمن كتب المنـاقب. وبطبيعـة الحال، فإن الدلالات الباطنية تجـد سنـدهـا ومعتمـدهـا في المعطيـات الواقعيـة على اختلاف

5) ابن الزيات، الكتاب المذكور، ص 87.
6) ما ذكر، ص 86.

أنواعها ومصادرها. بيد أن هذه القراءة التأويلية ينبغي أن تخضع لقيود حتى لا ينساق المحلّل لمعارفه فيسقط على الترجمة كل ما يخطر بباله.[7]

### 5. 2. 2. دينامية عالمي النص

في ضوء هذا الاحتياط سنقارب الترجمة الثانية من كتاب «التشوف» باعتبارها تمثل نموذجا وسطا بين الطرفين. ذلك أن قراءتها بكيفية حرفية تجعلها ساذجة لا غناء فيها، ولكن الاستغناء عن المعطيات الحرفية يجتث الترجمة من أصولها الواقعية البينة.

سنوظف مفهوما أساسيا لمقاربة الترجمة ـ المنقبة وتشريحها. هذا المفهوم هو التفاعل[8] « Synergy» « La synergie » أو شبه التضاد. «والتفاعل المعرفي يحصل حينما يجرب «أ» آنيا كـ «ب» ولكنه ليس «ب» أي مناقضة قانون الوسط المرفوع المنطقي». إن هذا المفهوم يمكن أن يصنف إلى عدة أنماط كما أنه يمكن التمثيل له بأنواع من الأعمال والأفعال المختلفة. بيد أننا سنقتصر على ضرب المثل له بأشكال من اللعب. ذلك أن أية لعبة لها هوية واحدة تفصلها عن غيرها. ولكن لها هوية أخرى تتضاد معها، وكلا من الهويتين جوهري للعبة، فلعبة الحصان البلاستيكي، مثلا، لها هويتان، فهي قطعة من البلاستيك، وحصان في آن واحد، وليس هناك تناقض منطقي حقيقي مستلزم إعتبارا لأن إحدى الهويتين مستنبطة أو متخيلة باعتماد على مبدأ المماثلة / اللاّ مماثلة. لعبة الحصان، إذن، لها شكل الحصان ولكنها يستحيل عليها أن تشارك في سباق الرهان، ولا أن تلد، ولا أن تأكل... كما أن لعبة السفينة لها بعض خصائص السفينة، ولكنها لا تحمل الناس ولا تمخر عباب البحر.

إذا ما نقلنا[9] هذا المفهوم من ميدان اللعب إلى ميدان المقدس فاننا نجده صالحا لتأويل طبيعة أعمال الصوفي وأفعاله. ذلك أن الصوفي هو إنسان ونبي أو نصف إله في وقت واحد. فللصوفي بعض صفات النبي ويقوم ببعض وظائفه. الصوفي، إذن، إنسان عادي وليس إنسانا عاديا، ونبي وليس نبيا، وشبه إلاه وليس شبه إلاه. إنه **يتماثل ويتفارق**، إن له هويتين : هوية الإنسانية العادية، وهوية اللا عادية في آن واحد. وليس هناك تناقض بين الهويتين، وإنما هناك مزج بينهما.

7) أنظر الفصل الرابع : 4. 3.
8) أنظر الفصل الثاني : 4. 3. 3. 2.
9) ليس في هذا النقل تمحل وإنما هو داخل في استراتيجية التقييس.

إن هذا التوتر هو ما نجده في كثير من تراجم الصوفية. هذا التوتر الذي يكون مصدر استغراب ودهشة، لأنه يوحي بخرق بعض القوانين الطبيعية والسلوك الاجتماعي المتعارف عليه،[10] ويوحي بالتناقض وما هو بالتناقض : في الترجمة التي نحن بصددها نجد الصوفي يؤذي القنفذ ولكنه، في نفس الوقت، يعتني به حتى يتماثل للشفاء في مجتمع يتخذ لحم القنفذ شواء لذيذا.

تمحيصا لما قدمنا من فرضيات متعلقة بالتحول الذي أحدثته الثقافة العالمة في الثقافة الشفوية البربرية، وبالمفاهيم الموظفة لإنجاز قراءة الترجمة ـ المنقبة نرجع إلى النص لمعالجته بتفصيل.

### 5. 2. 3. تشعب النص

ننطلق من مسلمة هي أن نواة النص هي اسم الصوفي : «أبو زكرياء يحي بن لا الأذى»، ولكن هذه النواة ليست مصوغة من أسماء الجنس والأفعال حتى يمكن لنا فهم معناها، وتبعا لذلك التنبؤ بما سيتلوها سيرا على مبدأ الانطلاق «من القمة إلى القاعدة»،[11] وإنما هي مؤلفة من كنية واسمين. أو بتعبير آخر من ثلاثة أسماء أعلام : زكرياء، و«يحي»، و«لا الأذى»، ومن اسمي علاقة، وهما «أبو» و«ابن». فما العمل، إذن، أمام هذا الوضع ؟ لحل الإشكال والاجابة عن التساؤل نستغيث برمزية أسماء الأعلام ليصير «يحيا» فعلا بالإضافة إلى «يحي» الاسم، ويصبح «لا الأذى» مصدرا إلى جانب كونه اسم علم.[12] وعليه، فإن اسم المترجم له يقدم لنا العناصر الثلاثة الضرورية المكونة للمناقب والكرامات وهي : اسم الشخص أو أسماء الأشخاص، وصفاته أو صفاتهم، وأعمالهم في زمان ومكان معينين. فالاسم هنا «أبو زكرياء يحي بن لا الأذى»، وصفاته أنه محي، وغير مؤذ، وعمله الإيذاء والإحياء. وبناء على هذا، فإن اسم العلم مؤشر على ما سيحمل عليه خلال النص.[13]

10) بالنسبة لبعض الناس دون آخرين.

11) هذه عملية استدلالية

- Top – down.
- Botton – up.

12) يراجع الفقرة الخاصة بالتفكيك الفصل الرابع : 4. 2. 2

13) يراجع الفصل الأول الخاص بـ «الرسم». 3. 1.

بيد أن نواة الاسم نفسها هي تمطيط لنواة أصغر منها قد تكون هي «إدّر»، فهذه النواة نميت إعتمادا على الأعراف الثقافية وتقاليد الغرض المكتوب فيه، فإذا كان الاسم «يحي»، فان الأعراف الثقافية العربية والإسلامية تضيف إليه «أبو زكرياء»، وبهذا وقع نقل أعراف ثقافية شفوية بربرية إلى تقاليد عربية إسلامية مكتوبة. كما أن اسم «يحي» دعا أيضا «يا يحي خذ الكتاب بقوة»، ومع أن ليس في الترجمة - المنقبة ما ينبئنا صراحة بأنه حفظ القرآن، أو شدا شيئاً من مبادئ العلم، فإن فيها بعض المؤشرات اللغوية التي تفيد شيئاً من ذلك. تلك المؤشرات هي الرحلة إلىالمشرق للحج. ولن تخلو الرحلة من إحدى الفوائد المعروفة المذكورة في بعض النصوص التراثية.

لذلك، فإننا نظن أن كيفية نسج الترجمة - المنقبة جاءت ممططة للاسم. فقد دعا الاسم صياغة عربية إسلامية معروفة، واستثار مضاده وهو «يميت»، أي أن عنوان الترجمة - المنقبة جمع، كالعادة، في مثل هذه النصوص بين المتضادين : المماة / الحياة.

يتبين مما تقدم أن افتراض اسم الترجمة - المنقبة مؤشرا على مضمونها أصبح يقينا. ولذلك لا مناص من مزيد إيضاح. فأبو زكرياء، يحي ابن لا الأذى الرجراجي ونكيلي شفشاوني حاج صالح رحيم عامل، هذه هي الصفات التي أسندت إليه، ولكنها تجعله لا يمتاز من غيره **تماما** إذ يمكن أن يوصف بها أشخاص غيره. وبناء على عدم الامتياز التام هذا، فإننا سنلجأ إلى عملية تصنيفية هي :

- ◻ الصفات الضرورية : [+ رجل]، [+ بالغ]، [+ عاقل]...
- ◻ الصفات الجوهرية : [+ بدوى]، [+ وَنكيلي]، [+ شفشاوني].
- ◻ الصفات العرضية : [+ حاج]، [+ صالح]، [+ عامل]، [+ رحيم].

إن هذا التصنيف من الناحية المبدئية لا غبار عليه، إذ يبدأ من العام إلى الخاص فالأخص. أي مما يشترك فيه مجموعة كبيرة من الرجال إلى مجموعة صغيرة، فإلى شخص معين. وعلى هذا، فإن ما يميز صاحبنا من غيره هو صفة الرحيمية التي تجلّت في عنايته بالقنفذ.[14] بهذه الصفة التي حملتها عليه الترجمة - المنقبة صار يعرف ويذكر حتى يمكن أن يقال فيه : أبو زكرياء يحي بن لا الأذى الرجراجي **صاحب القنفذ.**[15] كما أن هذا القنفذ يختلط بغيره من القنافذ، ولكنه إذا أضيف إلى أبي زكرياء «قنفذ أبي زكرياء»، يزول الاختلاط ويقع التمييز. هكذا أصبح، إذن، الوصف العرضي المضاف وصفا ضروريا، والأوصاف

14) راجع الفصل الأول، خصوصا ما يتعلق بالتحديد المنطقي والشجرة الفورفورية لتعلم سر تبنينا للرسم. 1. 1.

15) صاحب القنفذ رسم.

الضرورية غفلا غير ملحوظة. ومع هذا، فإننا نسلّم بأن العلاقة بين مختلف الصفـات هي علاقـة تضمنية.[16]

الانطلاق من العام إلى الخاص عكسته الترجمة ـ المنقبة بكل وضوح. فقد ابتدأت بعموم تجلّى في الاسم واللقب، ثم وقـع التخصيص بتحـديـد المكـان، وبـأفعـال كـالسفر إلى الحـج والعمل والصلاح. وهكذا، كلما كان يتقدم النص يضيف صفات جديدة تلقي مزيـدا من الضوء على الشخصيـة، ويبعـد صفـات أخرى عنهـا. على أن الترجمـة ـ المنقبـة يمكن أن تقسم إلى قسمين : **أحدهما** يـرد بصيغة فعل «الكون» الماضي مقومات الشخص أو صفاته بكيفية تراكمية محايدة. وثـانيهمـا برهنـة على النواة التي هي مـدار الترجمـة ـ المنقبـة، وهي : «عبـد صـالح مجاب الدعوة».

إن تقـدم النص أو نموه يتحقق بعـدة إواليـات، ولكننـا سنركز على إثنتين منهـا، همـا : التلاصق، والتماثل، (أو الترابط والمماثلة).

**أولا ـ التلاصق**، ونقصـد بـه ترابـط الكلمـات والجمل بعضهـا ببعض. ويهيمن في هـذا النص ثلاثة ترابطات :

1 ـ **السببي** : أخـذ المنجل أدى إلى كسر رجل القنفـذ، وكسر الرجـل أدى إلى تـأذي المتصوف فندمه على ما ارتكب فتكفيره.

2 ـ **المعجمي** : قطع شجر السدر... **يقطعه، وكسر** رجل القنفذ.. **وتألمه..** وارتكاب **الأذى** في حق **الخليقة.. فأخذ القنفذ.**

3 ـ الحوار الصريح المؤدي إلى المواجهة مع النفس مما خلق توترا حادا.

وبطبيعة الحال، فإن هذه العلائق المختلفة ليس بينها حدود فاصلة، وإنما بينهـا تـداخل وتقاطع. لذا وقعت تسميتها بالخاصة الغـالبـة، فـ «السببي» قوّى الإرتبـاط والخطيـة ممـا يؤدي إلى تطبيق قـوانين التعـدي[17] عليـه. و«المعجمي» يحكم النص برمتـه صراحـة أو ضمنـا، ولكن ليس بين مكوناته خطية. وأما «الحوار الصريح» فقد جاء في جمل معدودة.

16) راجع التشجيرات الواردة في الفصل الأول : 1. 1.
17) راجع الفصل الثاني. 4. 2. 2.

**ثانيا : التماثل،** (المماثلة) ونعني به اشتراك كل جملة وكل فقرة مع لاحقتها في المعنى مما يؤدي إلى انطباق قانون التعدي على النص. والتماثل بهذا المعنى يتداخل مع التلاصق، فكل منهما شرط وجود لأي نص مهما كان نوعه. ولكن الفرق بينهما أن التلاصق يقوم على **التجاور**، والتماثل يعتمد على الإنشطار أو الجمع بين مجالين أو مفهومين مفترقين. وهو حين ينشطر يبعد شطرا أو شطرين، وقد يبقيه أو يبقيها كامنا أو كامنين وراء ستار الشطر المنمى والمتحدث عنه.

وعلى هذا الأساس، فإن الانشطار[18] يحكم الترجمة ـ المنقبة كلها، ولكنه يتجلّى ـ بصفة أساسية ـ في البرهنة، وخصوصا في فعل «أخذ»، فهو أدى، في المرة الأولى، إلى إثم، وحفز، في المرة الثانية، على التكفير عن الإثم. بيد أن هذا الانشطار المعلن عن نفسه وراءه انشطارات أعمق. ونستطيع تبيانها من خلال وقائع النص التالية :

**خلق الله يتجلى :**

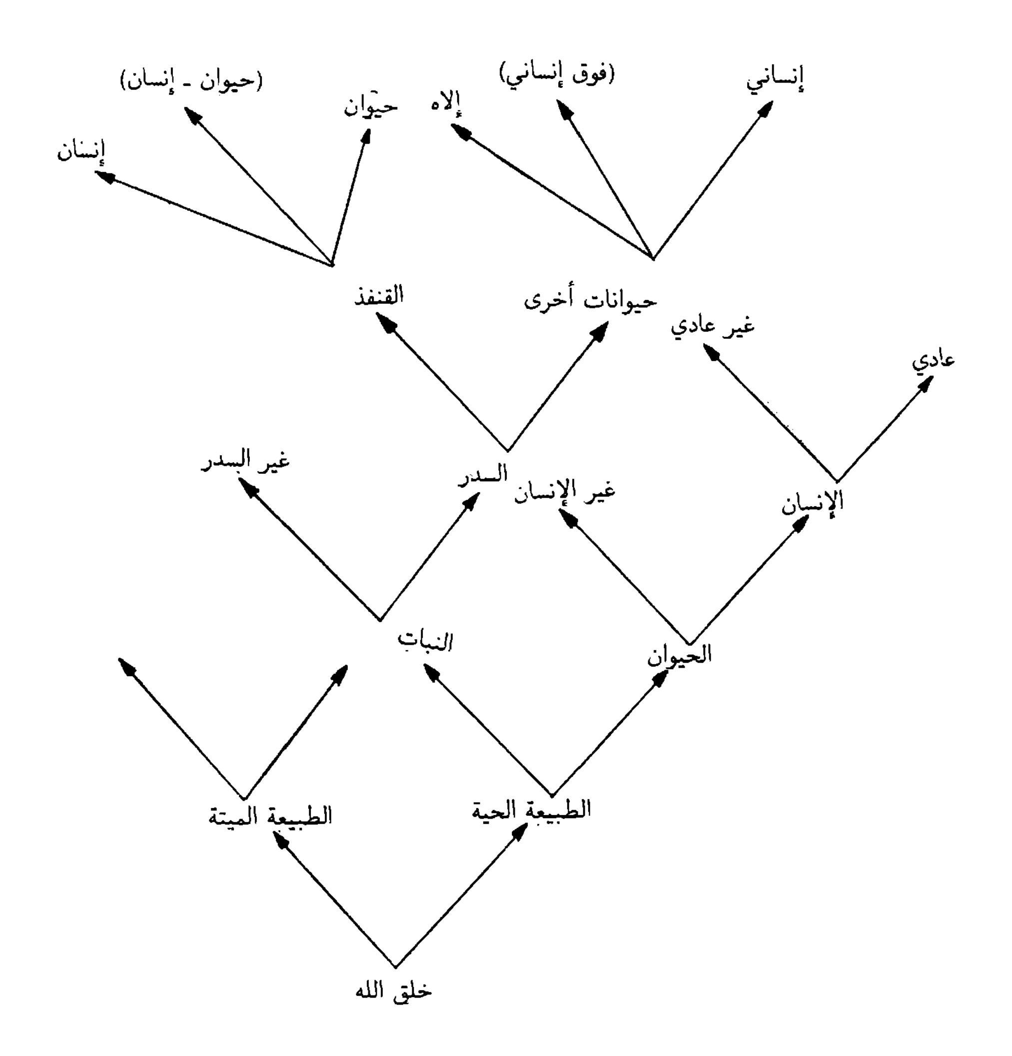
في المظاهر الطبيعية من فضاءات جغرافية ووديان وغيرها.

ـ في الحيوان الذي يتشعب إلى القنفذ وغيره.

ـ في الإنسان الذي يتفرع إلى الإنسان العادي الذي يمارس الأشغال الإنسانية الشاقة أو العادية لضمان الحياة، وإلى الإنسان اللاّ عادي المستجاب دعاؤه. كما أن الإنسان قد يكون قاسيا يُؤْذِي خلق الله بمختلف أجناسه ويستغله أنواعا من الاستغلال، وقد يكون رحيما يعطف عليْه ويمده بأسباب الحياة. هذا الإنسان الرحيم، له، من جهة، خصائص إنسانية. إذ يطعم ويسقي ويشفي. وهو بفعله هذا، له خصائص الألوهية، إذ الإلاه، في العقيدة الإسلامية، هو الذي يطعم ويسقي ويشفي ويميت ويحيي.

18) تقوم النظرية الكارثية على هذا الانشطار وكذا مفاهيم الذكاء الاصطناعي من مثل العقدة الأصلية والعقد الفرعية. أو 'الإطار الأساسي والأطر الفرعية.

ولنوضح هذه الانشطارات في شكل شجرة طبيعية ملائمة للتصورات الإسلامية.



وما يظهر من هذا الرسم[19] أن الترجمة ـ المنقبة فكرت بالأشياء المحسوسة مثل الإنسان والنبات والحيوان والماء والتين والزبيب والمنجل والخابية والجبائر، وهذه الأشياء كلها هي خلق الله الذي انبثق من أصل وحيد، ولكنه كلما تقدم انشطر شطرين أو ثلاثة (وربما أكثر)، وامتاز. بيد أنه قد ينتهي في الأخير ليكتسب مظاهر الإنسانية (القنفذ ـ الإنسان)، وبعض الناس تتجلّى فيه شواهد الألوهية. (الإنسان / النبي / شبه الإلاه).

## 5. 2. 4. بناء عالم الإمكان

هكذا نجد في الترجمة المنقبة إنسانا له بعض خصائص النبوة وبعض أوصاف الألوهية، ونجد له مميزات، مشتركة مع الإنسان. فقد أدمج الواقع في الممكن. ولتبيان هذا الإدماج وهذا التساند سنسلك طريقتين في التحليل، سنجعل في إحداهما الترجمة المنقبة مشبها به أو موضوعا ثانيا وعالم الممكن أو الواقع المحذوف مشبها أو موضوعا أول. وهذا ما فعله «ديرڤن» في معالجة «المزرعة الحيوانية»[20] ـ «لأرويل» وكنا تجنبنا هذه الطريقة في تحليل أولي[21] لهذه الترجمة ـ المنقبة لئلا نصدم مستمعينا وقرائنا ولكننا سنفعله الآن طالبين عفوهم وغفرانهم لأننا نريد إتاحة عدة إمكانات للباحث تحليلية ليختار منها ما يلائم قناعاته ومعتقدات متلقيه، ولأننا نريد أن نذهب في منطق النظرية إلى أقصاه. هذا المنطق الذي يقتضي أن يكون المشبه به حسيا مستقى من المفاهيم المرتبطة بكيفية مباشرة بالتجربة. وقد سميت هذه الاستعارة المؤسسة على المفاهيم الحسية بالاستعارة ذات المستوى القاعدي ـ أي أن هذه المفاهيم في مستوى وسط ليس أعلى ولا أسفل، فالحيوان مقولة عليا بالنسبة للقط، والقط الذي بدون ذنب مقولة دنيا.[22] والإنسان يدرك المستوى القاعدي أكثر من غيره ليتفاعل مع محيطه ويخزن المعرفة ويعالجها ويتواصل بها، وعلى هذا الأساس الحسي الوضعي يمكن صياغة الاستعارات[23] التالية معتذرين :

19) في هذا تَجْسِيمٌ لمفاهيم «العلم المعرفي» المذكورة في الفصل الثالث، والشجرة الفورفورية في الفصل الأول. ولكن الفرق هو وجود الحد الأوسط في هذا التشجير.

20) أنظر الفصل الثالث : 3. 3. 2.

21) انظر : **التاريخ وأدب المناقب** (1989) منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي. عكاظ. المغرب الرباط. ص. 28 ـ 42.

22) أنظر الفصل الثاني. 4. 1. 1.

23) لا يغرب عن بالنا أن مثل هذه التراكيب تسمى تشبيها بليغا في البلاغة العربية. أنظر الفصل الثاني. 3. 2. 1.

1) «الإلاه هو الصوفي !».
2) «النبي هو الصوفي !».
3) الإنسان قنفذ
4) المعصية منجل
5) شعر العانة شجر السدر
6) أنواع العبادات هي الماء والتين والزبيب
7) خلوة العبادة هي الخابية
8) المواعظ هي الجبائر.

كثير من المسلمين المؤمنين لا يقبلون مثل الاستعارتين الأوليين. فحينما يقرءونهما أو يسمعونهما يستعيذون بالله. ولكن المنظر الحسي الوضعي لا يهمه غضبهم وإرْغَاؤُهُمْ وإزبادهم ويقول لهم «عليكم بماء البحر» ! ولكن هيهات أن يستسلم اللاّوضعيون، وإنما يشمرون عن ساق الجد فيكيلون له الصاع صاعين متهمين إياه بالسذاجة والفجاجة، قائلين : إن المجرد يمكن أن يتخذ وسيلة لفهم الطبيعي والمحسوس، وخصوصا إذا كان المجرد معروفا بالاعتقاد والتخيل والبراهين العقلية والأدلة القطعية، فهو، في هذه الحالة، أعرف من الحسي القاعدي، فالله أعرف المعارف والنبي معروف حسا وعقلا...

على هذا الأساس سنسير في الطريقة الثانية لتحليل استعارات الترجمة ـ المنقبة جاعلين معطيات النص مشبها أو موضوعا أول وعالم الإمكان الواسع الفسيح مشبها به أو موضوعا ثانيا، والاستعارات هي :

1) الصوفي إلاه.
2) الصوفي نبي.
3) القنفذ إنسان.
4) المنجل معصية.
5) شجر السدر شعر العانة.
6) الماء والتين والزبيب أنواع العبادات.
7) الخابية خلوة العبادة.
8) الجبائر هي المواعظ.

إذا كانت هذه هي الاستعارات التي أمكن استخلاصها من الترجمة فكيف يمكن إدخال عالم الواقع في عالم الإمكان وعالم الإمكان في عالم الواقع ؟ للإجابة عن هذا التساؤل نبدأ في التحليل مبتدئين بتحليل استعارة الجمل فمثنين باستعارة النص ثم مثلثين باستعارة السياق.

□ **استعارة الجمل**

| 1) **الصوفي :** | **نبي أو إلاه :** |
|---|---|
| [+ الإطعام والإسقاء] | [+ رد الجوارح التي تفقد]، |
| [+ تجبير الكسر]، [+ إشفاء المرض] | [+ إبراء الأكمه والأبرص]، |
| | [+ إحياء الموتى]، [+ الإطعام والسقي]. |

هناك أكثر من مقوم جامع بين الطرفين :

| 2) **القنفذ :** | **إنسان :** |
|---|---|
| [+ حي]، [+ ذو شوك مؤذ]، | [+ حي]، [+ ممكن استعماله |
| [+ ممكن أكل لحمه]. | والانتفاع به]، [+ قابل للعلاج والتربية |
| | والتهذيب]. |

هناك خصائص مشتركة بين القنفذ والإنسان، أهمها : أن كلا منهما قابل لأن يُتَمَتَّعَ به ويعني به حتى يستقيم حاله. ويزيد توضيح هذا التشبيه التالي :

| 3) **المنجل :** | **معصية :** |
|---|---|
| [+ أداة]، [+ حادة]، [+ للقطع]، | [+ فعل]، [+ مؤذ]، [+ محدث |
| [+ مؤذية]، [+ تسيل الدم]، | ضررا في العمل الصالح]، [+ ناتج |
| [+ تحدث ثغرة في الجسم وفي غيره]. | عن أي عمل مخالف للشريعة]. |

فالجامع بين الموضوع الأول والموضوع الثاني هو إلحاق الضرر والأذى بشيء لا يباح إلا بالشريعة. وهذا المعنى سيوضحه التشبيه التالي :

| 4) **شجر السدر :** | **شعر عانة :** |
|---|---|
| [+ كثيف]، [+ مستقيم]، | [+ كثيف]، [+ مستقيم]، [+ مسيل] |
| [+ شائك]، [+ مضر للجسم]، | [+ مطنّنَّةٌ لتحقيق المنفعة والمتعة]، |
| [+ مسيل للدم]، [+ مطننّةٌ للاستعمال]. | |

فالمماثلة بين الطرفين هي التَّسْبِيلُ ومَظِنَّةُ الاستعمـال وتحقيق المتعـة التي هي نـاتجـة عن حرام أو متسببة فيه، وهذا ما يوضحه التشبيه التالي :

| 5) **الماء والتين والزبيب :** | **أنواع العبادات** |
|---|---|
| [+ أصول في الحياة وأساس لها]، | [+ أصول في تهذيب الشخصية] |
| [+ احترامها]، [+ عذوبة مذاقها]. | [+ احترامها]، [+ حلاوتها] [+ تقريب العبد إلى ربه]. |

فـالعلاقـة الموجودة بين الحـدسين هي الاحترام والحـلاوة، والخـاصـة الأخيرة في الحـد الثاني تـسلمنا إلى تشبيه يعكس مكان تحققها، وهو :

| 6) **الخابية :** | **حلوة العبادة :** |
|---|---|
| [+ فضاء]، [+ مظلم] | [+ فضاء]، [+ مغلق]، [+ مظلم] |
| [+ مغلق]، [+ وضع فيه القنفذ للعلاج]. | [+ يعتكف فيه الإنسان للتعبد]. |

| 7) **الجبائر :** | **مواعظ :** |
|---|---|
| [+ ما يشد به العظم المنكسـر حتى يتجبر]. | [+ ما يقال من كلام مؤثر ومهذب حتى تتجبر النفوس الكسيرة]، |
| [+ يقوم بالجبيرة مجبر]. | [+ يقوم بها العابد أو المتصوف]. |

□ **استعارة النص**

يمكن للقارئ أن يقول : إن ما قمنا به من تحليل يبقى ضمن دائرة التحليل بـالمقومـات وإن كـان يجمع بين مـا أعطي منهـا ومـا بني، وهـذا صحيح ولكنـه يمكن أن يكون خطـوة أولى في سبيل نظرية تفـاعل النص وفي تحقيق النظريـة التفـاعليـة للاستعارة. ذلك أننا إذا نظرنا إلى هذه الاستعارات من حيث تعالقها فإننا نرى أن كل واحدة منهـا تـسلم إلى الأخرى، إذ يمكن القول : إن هناك إستعارة أُمّاً وهي «الصوفي إله ونبي» تفرعت عنها باقي الاستعارات الأخرى : فـاللـه على كل شيء قـدير يربي الإنسـان ويهـذبـه إذا عمل عملا سيئـا بـارتكـابـه المحرمات. والتهـذيب يكون بـأنواع العبـادات في خلوة مع الاستمـاع لأنواع المواعـظ. وعلى

هذا، فإن الترجمة ـ المنقبة، رغم أنها لا تثير في القارئ العادي استغرابا ودهشة ـ كالاستعارة ـ فإنها بهذه القراءة التأويلية تصبح عبارة عن سلسلة من الاستعارات متفرعة عن استعارة نواة. وهذه العملية هي ما يمكن أن يطلق عليه الاستعارة النصية.

### □ إستعارة السياق

نعني باستعارة السياق مجموعة الاستعارات المتضام بعضها إلى بعض التي توازي الخلفية الثقافية والاجتماعية. هذه المجموعة يمكن أن ندعوها بالتمثيل، ما دلالة هذا التمثيل ؟ من الممكن أن نستخلص منه ثلاث بنيات أساسية.

أولها : **التدين الشعبي** : فهذا الرجل العادي مجاب الدعوة، ومع ذلك فإنه يدبر أمور معيشته بنفسه. إنه ليس من فقهاء الوقت المتعلقين بأذيال السلطة المركزية فيكتسبون الجاه والمال والخدم والحشم من أجل ذلك التعلق. وعليه، فإن هذا المثل لا يمكن أن يفهم حق الفهم إلا ضمن إطار التدين الشعبي أو ما يطلق عليه اسم التصوف. فهناك شيخ وهناك مريدون يأتون إليه بعد أن يروا أنهم ارتكبوا آثاما فيخضعهم لتعاليم تهذيبية وتربوية تصفيهم من أدران الحياة الدنيا وأوساخ الجسد، وتمحو عنهم سيئاتهم إلى أن ينجبروا فيذهبوا. إن الترجمة ـ المنقبة مثال مختصر لا يمكن أن يقدم كل عناصر هذا التدين ولذلك على القارئ أن يستدل بطريق الغياب ليبني العناصر المفقودة.

ثانيتها : **غريزة المحافظة على الحياة** : فهذا الرجل العابد المجاب الدعوة يبذل كل ما في وسعه لسد رمق حياته يأخذ المنجل ويحتطب السدر ويصيب القنفذ ولكنه يخشى عليه أن يموت فيعتني به إلى أن يَسْتردَّ عافيته. إن هذا مثل للدعوة إلى المحافظة على الحياة في بيئة تعاني من شظف العيش وقلة الموارد.

ثالثها : **الجنس** : إذا كانت الحاجة الأولية التدينية واضحة لا تحتاج إلى إثبات لأن كتب المناقب والكرامات والسير النبوية ألفت من أجلها، كما أن ضرورة المحافظة على الحياة ينبغي أن تكون من البدهيات إذ لا شيء سابق عليها، ولكن مُسَبّبَهَا الذي هو الممارسة الجنسية مختف وراء السطور. ولذلك يمكن أن ينازع في القراءة التي تدل عليه. ولكن المنازع عليه أن يتساءل عن مصير وجوده. وإذا ما فعل، فإن تلك القراءة تصبح من الضروريات.

## 5. 3. تظهير التظهير

إن القارئ لتحليلنا هذا يتبين له أننا وظفنا مفهومي التشعب وشبه التضاد. وله أن يتساءل عن العلاقة بينهما، ولربما يزداد تساؤله حينما ينظر إلى أعلى الشجرة، إذ يرى : إنساني / فوق إنساني / إلاه؛ وحيوان / حيوان / إنسان / إنسان، أو يشاهد أننا قرأنا «القنفذ» مرة باعتباره حيوانا، وتارة بإسناد صفات الإنسان إليه؛ فهو ـ طورا ـ المريد، وهو ـ حينا ـ الشيخ نفسه، وأن «المنجل» هو ما يعرفه الناس ولكنه هو الآلة التناسلية المعروفة ـ لنزيل تساؤل قارئنا وحيرته نقدم له التوضيحات التالية :

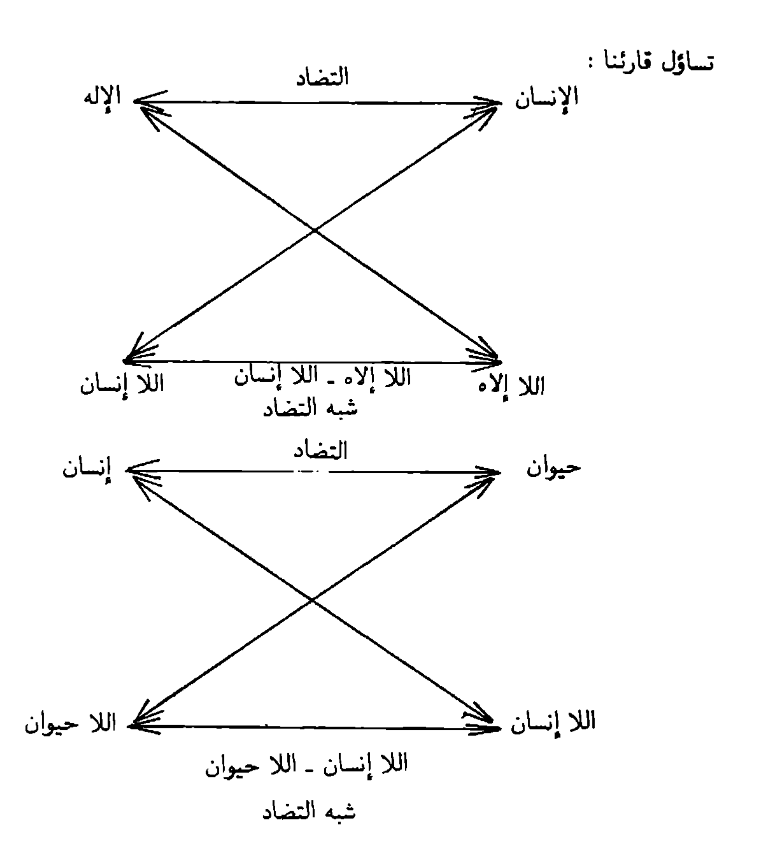
### 5. 3. 1. الازدواجية في شعرية «باختين»

من بين الأوائل الذين وظفوا مفهوم الازدواج «باختين» في كتابه «شعرية دوستويفسكي»(*) أثناء تحليله للجو الكرنفالي الذي يجمع في آن واحد بين : المقدس / المدنس؛ الأعلى / الأسفل؛ الجليل / الحقير؛ الحكمة / الْبَلاَهَة... هكذا انتبه «باختين» إلى ازدواجية المواقف في الأدب الكرنفالي وتحطيمه للمطلقات والحدود بين الأشياء مهما كانت طبيعة المطلقات ومهما كان نوع الأشياء، على أن ما نخالف فيه «باختين» هو أن تحطيم مبدأ الثالث المرفوع ليس خاصا بالأدب الكرنفالي. فالأدب المنقبي والسيري والكرامي والغريب والعجيب يفعل نفس الشيء.

### 5. 3. 2. الازدواجية في المقاربات الانثروبولوجية والسردية

كلنا يعرف توظيف الثنائيات في تحليل «ليفي ستراوس» و «كْرِيماص» في بداية أمره. إذ يجد القارئ المقابلات التالية : الثقافي / الطبيعي؛ الدنيوي / الديني... ولكن ما لبث أن شعر «كْرِيماص» ، بصفة خاصة، بعجز الثنائيات الحادة عن الوفاء بتحليل الظواهر المدروسة، فاعترف حينئذ أن هناك طرفين بينهما درجات ودركات. وَسَداً لهذا النقص والتقصير وضع المربع السيميائي الشهير الذي يتكون من محورين وعلاقات. ولنقدم الآن إستثمارا له لنزيل

تساؤل قارئنا :




يظهر لقارئنا، بعد هذا التوضيح، أن أعلى الشجرة، يتجلى فيه التضاد وشبه التضاد، وأن شبه التضاد مكون أساسي في بنية هذه الترجمة - المنقبة كما في غيرها من كثير أنواع النصوص الأخرى. وهذا ما ألح عليه «كْريماص» في معجمه. إذ يعترف بأن «أنواع الخطاب المقدسة والأسطورية والشعرية وغيرها تظهر إيثارا خاصا لاستعمال حدود المقولات المعقدة»،[24] وأن الأسطوري يتكون من الحدين المتضادين الصحيحين في آن واحد.[25] وسيرا في هذا الطريق قامت دراسات سيميائية بتحليل بعض الحكايات والأساطير معترفة أن تلك

(24 A. J. – Greimas, J. Courtés, (1979), Semiotique. Dictionnaire raisonné de la Theorie du langage. Hachette, Paris. P. 32.

(25 Idem, P. 240.

الثنائيات المعروفة تحتاج إلى تشعيب، ومن بين هذه الدراسات ما أنجزتـه «صوفيـا مركّن» في دراسة عنوانها : «المربعات المنطقية والسداسيات المنطقيـة في تحليل الفضـاءات العتبيـة».[26] وما يهمنا في هذا السياق هي أنهـا ركزت على «البين بين» « Betwixt and Between » وأثبتت أنه أساس النصوص التخييلية. وقد سار في هذا الاتجاه «كلودكانديلمـان» في دراسـة عنوانهـا : «المربع السـيميائي باعتباره كارثة».[27] وقد أوضح فيها، باعتمـاد على التـاريخ وعلى دراسـات التحليـل النفسي وعلى بعض مسلمـات نظريـة الكـوارث أن الـلاّستقرار في السرديـات مُكَـوِّنٌ أساسي.

## 5. 3. 3. نهاية المطاف : الدينامية والظاهراتية

وبعد : فقد حاولنا في تحليلنا التطبيقي هـذا أن نبين أســه النظريـة التي يقوم عليهـا تنويرا لقـارئنـا الكريم وتنبيهـا لـه لكي يقبـل إذا قبـل عن بينـة ويرفض إذا رفض عن بنيـة. وزيادة في التنبيه والتنوير نقول له : إن تحليلنا هذا يمكن أن نوجه إليه تهمة التفكيـك لأنـه لا يفرق بين الأجناس الأدبية، إذ يمكن أن يماثل بين النصوص العلميـة والقـانونيـة والشعريـة كما أنه يمكن أن يطابق بين كتاب رحلة وكتاب مناقب وكرامات.. معاذ الله، يا أخانا، فقـد انتقدنا التفكيكية وأحللنا الجنس الأدبي والتقاليد محلها اللائق بها، ومع ذلك، فاننا نعترف أن بعض عناصر التجربة الجسدية غائبة في هذا التحليل. وأما أنت فعليك أن تمتع حواسـك برؤية الصورة وبتنـاسق الأسطر وبشكل الحروف وبمواقع النقـط والفواصل.. وأن تَـتَـمَـتَّـعَ بـأصـوات الانشاد... وأن تعيش تجربة القراءة بكل أنواع ألمها وفنون عذابها.

26) Sophia Morgan (1984), « Logical Squares and Logical Hexagon in The Analysis of Liminal spaces », in Thomas A. Sebeock (ed), Sign system and function – Mouton.

27) Claude Gandelman, The Semiotic square as a « catastrophe ». Semiotica 70 – 1/2 (1988), 79-98.

# المصادر والمراجع بالعربية وبغيرها

## 1 ـ المصادر والمراجع بالعربية


- أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، **ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل**، تحقيق سعيد الأفغاني، مطبعة جامعة دمشق 1379 هـ / 1960 م.
- الآمدي، علي بن محمد . ـ **الإحكام في أصول الأحكام**. ـ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- أبو حامد الغزالي، (1960). كتاب **محك النظر في المنطق**. دار النهضة الحديثة، بيروت، لبنان.
- أبو حامد الغزالي، (1978)، **معيار العلم في فن المنطق**. دار الأندلس، بيروت، لبنان.
- أبو حامد الغزالي، **مشكاة الأنوار**، حققه وقدم له أبو العلاء عفيفي. الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1383 هـ / 1969 م.
- أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، **مفتاح العلوم**، ضبطه وشرحه الأستاذ نعيم زرزور. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ابن خلدون، **المقدمة**، دار البيان، بيروت، لبنان.
- ابن تيمية، مجموع الفتاوي (المجلد التاسع الخاص بالمنطق) مكتبة دار المعارف، الرباط، المغرب.
- ابن وهب أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان الكاتب، (1967)، **البرهان في وجوه البيان**. تحقيق. د. أحمد مطلوب وخديجة الحديثي.
- ابن جرير الطبري. ـ **جامع البيان في تأويل القرآن**. ط. مصر.
- ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق. د. أحمد التوفيق 1404 هـ / 1984 م.

- **التاريخ وأدب المناقب**، (1989)، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي. مطبعة عكاظ ـ الرباط / المغرب.
- جولد زيهر، **مذاهب التفسير الإسلامي**. ـ ترجمة. د. عبد الحليم النجار، دار الكتب الحديثة. مصر، 1374 هـ / 1955 م.
- الزمخشري، **الكشاف** عن حقائق غوامض التنزيل، دار المعرفة، لبنان.
- مصطفى البلاقي، حاشية على ما **أملاه** الشيخ القويسيني على سلم الأخضري. طبعة حجرية، فاس، المغرب.
- مجلة **المناظرة**، السنة الأولى، العدد الأول، شوال 1409 هـ / يونيو 1989 م.
- محمد مفتاح (1987) **دينامية النص**، تنظير وممارسة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
- **تحليل الخطاب الشعري** (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب (1985).
- عادل فاخوري، (1980)، **منطق العرب**، من وجهة نظر المنطق الحديث. دار الطليعة، بيروت.
- فخر الدين الرازي، **نهاية الإيجاز في دراية الاعجاز**، تحقيق ودراسة. د. بكري شيخ أمين. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
- فورفوريوس العودي، **ايساغوجي**. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. مصر.
- سعيد الأفغاني، **في أصول النحو...** ط 3. مطبعة جامعة دمشق، 1383 هـ / 1964 م.
- الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**. دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت. لبنان.

## 2 ـ بغير العربية

- Alshawi Hiyan, (1987), **Memory and context for Language Interpretation.** Cambridge University Press.
- Bouffartique Jean, (1977), **Porphyre (de l'Abstinence).** Raspail. Paris.
- Cullingford Richard E. (1986), **Natural Language Processing – Rowman and Little-field.**
- Cascardi Anthony J. (ed), **Literature and the Question of Philosophy.** The Johns Hopkins, Univessity Press.
- Couzens Hoy David, (1982), **The Critical circle, Literature, History and Philosophical** Hermenentics. University of Califomia Press.
- Dijk Teun Adrianus, (ed), (1987), **Approach To Discourse,** Poetics, and Psychiatry. John Benjamins V.
- Dalla Chiara Maria Luis « An Approach To Intensional Semantics » Syntese V. 73 n° 3 December 1987.
- Da Silva Gerard, (1987), **Le Texte et le lecteur comme interaction objective.** pour un Monisme epistemologique ?
- Umberto Eco, (1985), **Lector in Fabula.** Grasset Paris.
- Umberto Eco, (1985) **Semiotics and the philosophy of Language.** Mac Millan.
- Umberto Eco, (ed), (1988), **Meaning and Mental Representaitons.** Indiana University Press.
- Fogelin Robert J. (1988), **Figuratively Speaking,** Yale University Press.
- G.W. Fitch, (1987), **Naming and Believing.** D. Reidel Publishing Comapany.
- Felperin Howard, (1985), **Beyond Deconstraction.** The Uses and Abuses of Letera-ture Theory ; Clarendon Press. Oxford.
- Gillian Brown, Georges yule, (1983), **Discourse Analysis.** Cambridge University Press.
- Gumpel Liselotte, (1984), **Metaphor Reexamined** : A non-Aristotelian Perspective. Bloomington : Indiana Univesity Press.
- Gandelman Claude, (1988), « The Semiotic Square as a « Catastrophe ». **Semiotica** 70-1/2.
- Greimas A.J., Courtés, (1979), **Semiotique.** Dictionnaire Raisonné de la Théorie du Langage. Hachette, Paris.
- Hazard, A. Adam, (ed), (1983), **Philosophy of the Literary Symbolic.** Talahassee : University Press of Florid.

- Hess Mary, (1980), **Revolution and Reconstruction in the philosophy of Science.** The harvester Press.
- Jay Gregorys and Miller David, (eds), (1985), **After Strange texts.** the Role of theory in the Study of Litterature. the University of A Labama Press.
- Juhl. P.D., (1980), **Interpretation-An Essay in the philosophy of literary crisicism.** Princetion University Press.
- Kjärgaard Mogen Stiller, (1986), **Metaphor and Parable.** Leiden E.J. Brill.
- Krieger Murray (ed), (1987), **The Aims of Representation Subject/Text** History. Columbia university Press. New York.
- Zoltan Kövecses, (1986), **Metaphor of Anger, Pride and Love**-A Lexical Approach to the Structure of concepts. Amsterdam/Philadelphia.
- George Lakoff and Mark Johnson, (1980), **Metaphor We Live** By Chicago : University of Chicago Press.
- Metzing Dieter (ed), (1979), **Frame conceptions and text Understanding** (Research in text Theory ; V. 5) New York.
- Mac Cormac Earl R, (1985), **A Cognitive theory of Metaphor** Cambridge, MA.
- Miall David. S. (1982), **Metaphor : Problems and Prespectives.** Great Britain.
- Merrell Floyd, (1985), **A Semiotic Theory of Texts.** Mouton de Gruytler. New York.
- Madkour Ibrahm, (1969), **L'organon d'Aristote dans le Monde Arabe** Vrin, Paris.
- Noble, H.M., (1988), **Natural Language Processing.** Black Well Scientific Publications. Oxford. London.
- Nelson, Johnson S. et al (des), (1987), **The Rhetoric of the Human Sciences.** The University of Wisconsin Press.
- Northrop Frye, (1984), **Le grandcode,** La Bible et la Litterature Seuil. Paris.
- Ortony Andrew (ed), (1986), **Metaphor and Thought.** Cambridge University Press.
- Payatos Fernando (ed), (1988), **Literary An thropology** Amsterdam/Philadelphia.
- Prodi Georgio, Material Basis of Signification. **Semiotica** 69 – 3/4 (1988), pp. 191-240.
- Paivio Allan et Al, (1985), «Poetic Comparisons : Psychological Demension of Metaphoric Processing», **Journal of Psycholinguistic Research.** V. 14 N°. 4 pp. 365-379.
- Pulman, S.G., (1983), **Theory of Word Meaning.** Groo M Helm L T D Great Britain.
- Rorty, R. (1979), **Philosophy and the Mirror of Nature.** Princeton : Princeton University Press.
- Rylance Rick, (ed), (1987), **Debating texts. Readings in Twentieth Century Literary** Theory and Method. University of Toronto Press.
- Rastier François, (1987), **Sementique interpretative.** PUF. Paris.
- Schutzer Daniel, (1987), **Artificial Intelligence.** Van Nostrand Reinhold company. U.S.A.
- Stambovski Phillip, (1988), **The Depictive Image : Metaphor and Literary Experience.** University of Massachusetts Press.
- Scarle John R. (1982), **Sens et expression,** Minuit. Paris.

- Sebeok Thomas A. et al (eds), (1984), **Sign, System and Function.** Mouton Publishers. New York.
- Terry et Al (eds), (1986), **Reasoning and Discourse Processes.** Academic Press.
- Taylor William et al (eds), (1984), **Metaphor of Education.** HEB. London.
- Thagard Paul R, (1988), **Computatinal Philosophy of Science.** Cambridge.
- Valdès Mario J. (1988), **Phenomenological Hermenentics the Study of Literature. University of Toronto Press.**
- **Walter Beale, (1987), Apramatic Theory of Rhetoric.** Southern Illinois University Press.
- Wolf Paprotté et René Dirven (eds), (1985), **The Ubiquity of Metaphor,** Amsterdam/Philadelphia.
- William Bechtel, (1988), **Philosophy of Science.** An Overviw for Cognitive Science. LEA.

# المحتوى



## الفصل الأول

## الفصل الثاني



## الفصل الثالث

## الفصل الرابع

## الفصل الخامس

مطبعة سبو
خليل 3 (لافيليث)، زنقة 15، رقم 24،
الدار البيضاء 05 (المغرب).
الهاتف : 24.06.05/42

إننا لا ننكر أن علماءنا القدماء جاءوا بآراء حصيفة وصائبة في المسألة التي تحت قيد التحليل، ولذلك بوأناهم المكانة اللائقة بهم في هذه الدراسة، ولكنهم بحكم سيطرة المناخ المعرفي الموروث عن أرسطو شطروا آلية التقييس إلى شطرين: أحدهما تخلوا عنه وثانيها تبنوه؛ فما تخلوا عنه هو التقييس (القياس) الذي تركوه للأصوليين والمناطقة والفلاسفة، وما تبنوه هو الاستعارة. خاض الأصوليون والمناطقة والفلاسفة في دور القياس في عملية المعرفة وفي قيمتها، وترك البلاغيون شذرات في الدور المعرفي للاستعارة سرعان ما تناساها الخلف واكتفوا بجماليتها ثم نسوا كل دور لها فصارت عبارة عن محفوظات ببغاوية تتردد بين الشفاه. وقد آن الأوان لاستثمار آلية التقييس لإدراك دور الاستعارة في خلق النظرية وفي تسويغها وفي الربط بين عناصر الكون للهيمنة عليه وضمان العيش فيه، أو في خلق الأوهام وقلب الحقائق، وفي نشر معرفة مزيفة.

محاولتنا هذه تسير في ضوء هذا الاتجاه الموحد الجديد وإن هدفت بصفة أساسية إلى الإسهام في حل مسألة استعارة السياق بتعبير «وينريخ» أو النص (بتعبيرنا). أي مجموع الاستعارات الواردة في النص المكونة لخطاب ما، إرجاعا للدور المعرفي والجمالي للنص، إذ صار يعتبر وخصوصا الأدبي منه مجرد هذر لأناس يعيشون في أوهام أو مجرد خزان لمعلومات تستغل في أغراض مختلفة. وقد تبنينا نظرية ملائمة جعلتنا نتجاوز العوائق الإبستمولوجية التي تحول دون الوصول إلى هدفنا. وكانت النظرية هي التفاعلية لشموليتها وبساطتها، فهي شاملة من حيث إنها تجعلنا نستطيع تجاوز الإبستمولوجية الأرسطية الوضعية التي اهتمت بتحليل الكائنات الطبيعية والمفاهيم اعتماداً على مقوماتها الملاصقة، وتجعلنا - بدلا من ذلك - نتبنى التحليل بالمقومات السياقية المستقاة من تفاعل المفاهيم ومساق الخطاب وسياقه ضمن بنية شاملة. وأما بساطتها فمن حيث إن كل استعارة يمكن ردها - بناء على المساق والسياق - إلى موضوع أول وإلى موضوع ثانٍ مِمّا جعلنا نستغني عن التقسيمات الكثيرة التي استنكرها القدماء أنفسهم؛ على أن الوصول إلى بناء الاستعارة النصية تطلب منا المرور باستعارة الجملة لإدراك معنى المماثلة التي تقوم بدور أساسي في النظرية المعرفية للاستعارة، وتبيان معنى الاستعارة المفهومية التي تتمحور حولها استعارات تعبيرية.

46 درهماً